

## الفصل الخامس

### طوائف من الشعراء

١

#### شعراء الغزل الصريح

رأينا في حديثنا عن مراكز الشعر لهذا العصر كيف تحضرت المدينة ومكة وغرقتا إلى آذانهما في الرفق والنعم ، بتأثير ما صبَّ فيهما من أموال الفتح والرقيق الأجنبي ، وكيف أخذ هذا الرقيق يسُدُّ حاجة الشباب المتعطّل من اللهو بما كان يقدّم له من غناء وموسيقى ، وقد استطاع من خلال ملاءمته بين الغناء العربي القديم وما ثقفه من غناء الفرس والروم أن ينفذ إلى نظرية جديدة وضع على أساسها الألحان والأنغام التي وقّع عليها الشعر ، وظلت هذه النظرية مسيطرة على غنائنا العربي قروناً طويلة .

ويُحِيل إلى الإنسان كأنما فرغت المدينتان الكبيرتان في الحجاز للغناء ، فالناس يختلِفون فيهما إلى المغنين والمغنيات ، حتى النسّاك والفقهاء ، فليس هناك من لا ينعم بالغناء ، حتى النساء كن يتخذن الأسباب لساعه في مجالسهن . وفي كتاب الأغاني أخبار كثيرة تصور كلف سكان المدينتين به وأنه أصبح شغلهم الشاغل<sup>(١)</sup> . وقد شاعت في هذا الجو المعطرة أنفاسه بالموسيقى موجة واسعة من المرح ، ورقيت الأذواق ودقت الأحاسيس وعاش الشعراء للحب والغزل فهو الموضوع الذي كان يطلبه المغنون والمغنيات ويستهمي الناس من رجال ونساء . وبذلك كادت تختفي من المدينتين الموضوعات الأخرى للشعر ، فقلما نجد فيهما مديحاً أو هجاء ، إنما نجد الغزل يشيع على كل لسان . وأخذ يتطور بتأثير الغناء الذي عاصره تطوراً واسعاً ، إذ أصبحت كثيرته مقطوعات قصيرة ، وعدلّ الشعراء إلى الأوزان الخفيفة من مثل الرّمل والسريع والخفيف والمتقارب والهزج

ص ٩٤ ، ٢٢٧

(١) انظر في ذلك كتابنا الشعر والغناء في

المدينة ومكة لعصر جي أمية ( طبع دار المعارف )

والوافر ، كما عدلوا إلى محزوات الأوزان الطويلة من مثل الكامل والبسيط والرجز ، بل لقد مالوا إلى تجزئة الأوزان الخفيفة من مثل الخفيف والرمل والمتقارب ، حتى يعطوا للمغنين والمغنيات الفرصة كاملة كمن يلائموا بين أشعارهم وألحانهم وأنغامهم التي يوقعونها على آلاتهم الوترية وطبولهم الموسيقية ، فيطيلوا أو يقصروا ويجهروا في مواضع الجهر ويهمسوا في مواضع الحس . وليس ذلك فقط ما أثار به الغناء الأموي في الغزل الذي عاصره ، فقد دفع الشعراء إلى اصطناع الألفاظ العذبة السهلة ، حتى يُرضوا أذواق المستمعين في هذا المجتمع المتحضر الذي يخاطبونه . وكانت هذه أول دفعة قوية نحو تصفية الشعر العربي من ألفاظه البدوية الخلفية .

ولم يختلف هذا الغزل الجديد عن الغزل الجاهلي القديم في صورته الموسيقية والأسلوبية فحسب ، فقد أخذ يختلف أيضاً في صورته المعنوية ، إذ لم يعد تشبيهاً بالديار وبكاءً على الأطلال ، كما كان الجاهليون يصنعون في جمهور غزلم ، بل أصبح غالباً تصويراً لأحاسيس الحب التي مكبها المجتمع الجديد في نفوس الشعراء . وهو مجتمع ظفرت فيه المرأة العربية بغير قليل من الحرية ، فكانت تلتقي الرجال وتحادثهم ، وكانت - شأن المرأة في كل عصر - تُعجَبُ بمن يصف جمالها وتعلق القلوب بها . وينبغي أن نفرق بين الحرية والإباحية ، ففي الأولى يبقى للمرأة وقارها وعفافها ، وفي الثانية تصبح ممتهنة تقبل على اللهو والعبث والحجون ، لا يردُّها وقار ولا حشمة ولا خلق .

وحقاً برزت المرأة في مكة والمدينة للشباب في هذا العصر ، ولكنها ظلت تحتفظ بحجاب من الوقار ، كانت فيه لا تضيق بما يقال فيها من غزل ، بل لعلها كانت تحبُّ فيه أن يحظى بغير قليل من الحرارة . وبذلك نفهم إقبال الثمرياً بنت علي بن عبد الله الأموية في مكة وسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة في المدينة على هذا الغزل ، بل لقد مرَّ بنا أن ابن قيس الرقيات كان يتغنى بنساء ممدوحه مصعب بن الزبير ، وتغنَّى بأُم البنين في مدائحه لعبد الملك ، ولم يجد أحدهما في ذلك حرجاً .

وعلى هذا النحو كان الناس رجالاً ونساءً في مكة والمدينة يقبلون على شعر

الغزل، وأخذ الشعراء يُخضعون ملكاتهم وعواطفهم له ، منهم من يتحفظ ، فيكظم حبه في نفسه ، فإذا هو حب عذرى نقي طاهر ، وهم أصحاب التقوى والورع مثل عبد الرحمن بن أبي عمَّار الجُسَّامِي ناسك مكة وعروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة فقهى المدينة . ومنهم من لا يتحفظ ، بل يصرح بحبه وزياراته لمحجوباته ، وهم الجمهور الأكثر ، وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة والأحوص والعَرَجِي ، فهم جميعاً يطلبون المرأة ويلحون في الطلب ، وهم جميعاً يُلْقون من حولها شباك الإغراء ، ولا بأس أحياناً من أن يستفروا أهلها بما يثيرون في نفوسهم من ريبة ؛ وبلغ من تبه عمر في ذلك أن رأيناه يصورها متهاككة عليه تتضرع إليه وتستعطفه ، ونحن نقف قليلا عنده وعند صاحبيه ، لتتضح لنا صورة هذا الغزل الصريح .

### عمر<sup>(١)</sup> بن أبي ربيعة

في بيت قرشي واسع الثراء ، هو بيت بنى مخزوم ، ولد عمر في سنة ٢٣ للهجرة ، لأبيه عبد الله بن أبي ربيعة ، ولأم يمنية أو حضرمية تسمى مجدا . وكان أبوه في الذروة من قومه ثراء ، واستعمله الرسول صلى الله عليه وسلم والياً على إقليم من اليمن يسمى الجند ، وظل عليه في عهد عمر وعثمان ، حتى إذا حُصِر الأخير جاء لينصره فسقط عن راحلته قرب مكة فمات سنة خمس وثلاثين . وهو أحد من نزل بأهله في مكة بعد هجرتهم<sup>(٢)</sup> ، وفيها وُلد له عمر ، وبها نشأ ، ترعاه عين أمه الغريبة ، وكان جميلاً فدلتته ، يؤازرها في ذلك ما ورثه عن أبيه من أموال وفيرة .

وإذن فعمر شاعر مكى ، وليس بصحيح أنه من أهل المدينة كما توهم

وشاعر الغزل ( في سلسلة اقرأ ) لباس محمود العقاد وكتابيننا : التطور والتجديد في الشعر الأموى ( طبع دار المعارف ) ص ٢٣٩ والشعر والغناء في المدينة ومكة ص ٢٣٩ . وقد نشر شارترس ديوانه وألحق به دراسة عن حياته وشعره ولغته وأوزانه ونشر الديوان بمصر وفي بيروت .  
( ٢ ) ابن سعد ٣٢٨/٥ .

( ١ ) انظر في ترجمة عمر الأغانى ( طبع دار الكتب ) ٦١/١ وما بعدها ، ٢٣٩/٩ وما جـ والشعر والشعراء ٥٣٥/٢ والموشح ص ٢٠١ والخزائن ٢٣٨/١ ومرآة الجنان للياقمى ١٨٢/١ وابن خلكان وشذرات الذهب ١/٤٠ ؛ وأمالى القالى ٥١/٢ ، ٣٠٩ ، وذيل الأمالى ص ٦٨ ، وحديث الأربعماء ( طبعة الحلبي ) ١/٣٧٢ وما بعدها

بعض المعاصرين ، وبنوا دراستهم له على هذا الوهم<sup>(١)</sup> ، وفي الكامل للمبرد إشارات لذلك كثيرة تنقض هذا الوهم نقضاً<sup>(٢)</sup> وبما يشهد لذلك شهادة قاطعة قوله :

وأنا امرؤٌ بِقَرَارِ مَكَّةَ مَسْكِنِي      ولها هَوَايَ فَفَقْدَ سَبَبَتِ قَلْبِي  
وقد عاش حياته للغزل الصريح ، ويسر له ثراؤه هذه المعيشة ، فالدنيا دائماً مشرقة باسمه من حوله ، والمغنون والمغنيات من أهل مكة مثل ابن سُرَيْج وابن مِسْجَح والغريض يلزمونه ويغنونه في شعره . حتى لنظن أنهم كانوا يقاسمونه حياته ، فضلاً عما كان يعطيهم من عطايا جزيلة<sup>(٣)</sup> . ويقول الرواة إنه كان بيته مغنيتان تغنيانه في أشعاره هما بَعُومُ وأَسْمَاءُ . وسرعان ما يطير غزله إلى المدينة ، فإذا مغنوها ومغنياها من مثل مَسْعُدٍ وجميلة يغنون فيه ، ويلم بالمدينة كثيراً ، ويصبح أكبرَ غَزَلٍ في عصره ، ولهذا لم يكن غريباً أن يخلف أضخم ديوان لا في عصره فحسب ، بل في جميع العصور العربية .

وهو في غزله يُخَضِّع ملكاته لفن الغناء الذي عاصره ، إذ يستخدم الأوزان الخفيفة والحزوة ، حتى يحملها المغنون والمغنيات ما يريدون من ألحان وإيقاعات كما يستخدم لغة سهلة ، فيها عذوبة وحلاوة ، حتى تَفْسُح لهم في روعة النغم . وزراه لا يصطنع أي ثوب من ثياب التكلف ، بل يُظَهِّرنا على حقيقته في غزله وأنه لا يزال يتخذ الشباك لكل امرأة جميلة في مكة ، وتحول إلى مواسم الحج ، يعلن حبه إعلاناً لكل امرأة ذات حسن يلقاها ، يقول :

يَقْصِدُ النَّاسَ لِلطَّوَافِ احْتِسَابًا      وَذُنُوبِي مَجْمُوعَةً فِي الطَّوَافِ  
وتذهب مواسم الحج ، فيتصدى لكل فتاة جميلة بمكة ، وخاصة الثريا بنت علي الأوبية . وينزل المدينة فيتصدى للقرشيات الجميلات بها من مثل سَكِينَةَ بنت الحسين وزَيْنَبَ الجُمَحِيَّةَ . وعلى هذا النحو كان لا يزال يتغزل في فتيات قریش النبيلات ، ومن ثم وصف ترفهن وما كنَّ فيه من نعيم ، وديوانه من خير الدواوين التي تصوِّر ما عرقت فيه القرشيات لهذا العصر من حضارة

(١) انظر عمر بن أبي ربيعة حياته وشعره  
لجور طبع بيروت .  
(٢) الكامل ص ٣٧٤ ، ٥٧٠ وراجع  
(٣) انظر الأغاني ( طبع دار الكتب )  
أخباره في الأغاني مع معنى مكة ومع الثريا .  
٢٠٨/٨ ، ٢٩٦/٤ ، ٣٢٢/٣ ، ٣٥٩/١

وحلبي وطيب : على نحو ما نرى في قوله :

قالتُ ثُرَيَّا لِأَتْرَابِ لَهَا قُطْفٌ قَمَنْ نُحَيِّي أَبَا الْخَطَّابِ مِنْ كَثَبِ (١)  
 فِطْرُنَ طَيْرًا لَمَّا قَالَتْ وَشَايِعَهَا مِثْلُ التَّمَائِيلِ قَدْ مُوَّهِنَ بِالذَّهَبِ  
 يَرَفْلُنَ فِي مُطَرَفَاتِ السُّمُوسِ آوَنَةٌ وَفِي الْعَتِيقِ مِنَ الدِّيْبَاجِ وَالْقَصَبِ (٢)  
 تَرَى عَلَيْهِنَ حَلَى الدَّرِّ مَتَسِقًا مَعَ الزَّبْرِجَدِ وَالْيَاقُوتِ كَالشَّهْبِ  
 وَنَرَاهُ أحيانًا يُلْهَجُ بِصِبايَتِهِ وَجِبَهُ وَمَا يَذُوقُ مِنْ وَجْدِ وَأَلْمٍ ، مُتَلَفِّفًا لِصَاحِبَتِهِ ،  
 مَلْحًا عَلَى أَنْ تَواصِلَهُ بِوَدْحَا ، مُسْتَعْفَفًا ، مُتَضَرِّعًا ، بِمِثْلِ قَوْلِهِ :

ما كنتُ أشعرُ إلا مذ عرفتكمُ أن المضاجع تسمى تُنبتُ الإبرأ  
 قد لمتُ قلبي وأعياني بـواحدة فقال لي : لِأَتَلْمُنِي وَادْفَعِ الْقَدْرَا  
 وَلَكِنْ هَذَا يَأْتِي نادرًا فِي غَزَلِهِ ، إِذْ قَلِمَا يَشْكُو مِنْ هَجْرٍ أَوْ يَتَأَلَّمُ لَصَدِّ ،  
 فَقَدْ تَحَوَّلَ بَشْرُهُ بِمَلْؤُهُ تَيْهًا بِنَفْسِهِ . وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ جَمِيلًا ، وَكَأَنَّمَا انْعَكَسَتْ  
 فِيهِ صُورَةُ الْحُبِّ ، فَهُوَ لَا يَشْكُو الْغَرَامَ وَالْعَشْقَ ، بَلْ عَجُوبَتُهُ هِيَ الَّتِي تَشْكُو مِنْ  
 ذَلِكَ ، فَهِيَ الَّتِي تَحِيطُهُ بِشِبَاكِ التَضَرُّعِ وَالِاسْتِعْفَافِ ، وَهِيَ الَّتِي مَا تَبَى  
 مَسْهَدَةً تَتَعَذَّبُ فِي جِبِهِ وَتَتَمَنَّى لَوْ تَرَاهُ . وَاسْمُهُ يَقُولُ عَلَى لِسَانِ إِحْدَى صَوَاحِبِهِ :  
 تَقُولُ إِذْ أَيَقِنْتُ أَنَّ مَفَارِقُهَا يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ الْيَوْمِ يَا عَمْرَا  
 وَيَقُولُ عَلَى لِسَانِ ثَانِيَةٍ :

ما وافق النفس من شيءٍ تَسْرُّ بِهِ وَأَعْجَبَ الْعَيْنَ إِلَّا فَوْقَهُ عَمْرُ  
 وَيَقُولُ عَنِ ثَالِثَةٍ :

قد حلفتُ ليلة الصُّورَيْنِ جَاهِدَةً وَمَا عَلَى الْمَرْءِ إِلَّا الْحَلْفُ مَجْتَهِدًا (٣)  
 لِأُخْتِهَا وَلِأُخْرَى مِنْ مَنَاصِفِهَا لَقَدْ وَجَدْتُ بِهِ فَوْقَ الَّذِي وَجَدًا (٤)  
 لَوْ جُمِعَ النَّاسُ ثُمَّ اخْتِيرَ صَفْوُهُمْ شَخْصًا مِنَ النَّاسِ لَمْ أَعْدِلْ بِهِ أَحَدًا

(١) قطف : جمع قطف وهي بطيئة الخطو .  
 كَثَب : قريب .  
 (٢) مطرفات : ثياب نفيسة . السُمُوس : بلد بالمغرب . القصب : الحرير .  
 (٣) الصوران : موضع قريب المدينة .  
 (٤) مناصف : جمع منصف كبير ، وهو الخادم .

ويصور شغل ثلاث أخوات به ، فيقول :

قالت الكبرى أتعرفنَ الفتى قالت الوُسْطَى نعم هذا عُمَرُ  
قالت الصُّغرى وقد تيمَّنتها قد عرفناه وهل يخفى القمر  
ولم يقف بإعجاب المرأة به عند ذلك الحد ، فقد أخذ بصور كلفها به وتصدَّيها  
له ، وأنها تدور حوله لعلها تجد سبيلا إليه ، وهو في أثناء ذلك يتدلل ويتمنع ،  
وهي تسعى إلى الوصول منتهزة كل فرصة ، حتى بين مشاعر الحج ، يقول :  
قالت ليربِّ لها تحدُّها لئُفسدنَ الطَّواف في عُمَرِ  
قوى تصدَّى له ليعرفنا ثم اغمزيه يا أختَ في خَفر  
قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبَطرتُ تَسعى على أثرى<sup>(١)</sup>  
وعلى هذا النحو نراه في غزله ، يوقد قلوب الفتيات حبًّا ، وهن يتمنين عطفه  
وحنانه ، وبذلك يعكس الصورة المألوفة في الغزل العربي ، إذ لا يزال الشاعر  
يطلب ويأمل ويتضرع ويرجو العطف والحنان ، بل لا يزال يعلن العشق والطيام  
مسترحماً مستعظماً ، أما عند عمر فهذا كله موجود ولكن لا في تصوير حبه  
هو وإنما في تصوير حب الفتيات والنساء له وما يوقدُ به قلوبهن من العشق والصبابة .  
فعمر في غزله معشوق لا عاشق ، أو على الأقل في جمهور هذا الغزل ،  
ويستتمُّ خطوط هذه الصورة لا بإعلان الفتيات والنساء حبهن له فحسب ، بل  
أيضاً بما يصفن من خطوط هذا الحب ، فهن يتحدثن عن هجرانه ، وهن يذقن  
مرارة الغيرة ويصطلين بناها المحرقة ، وهن يتألمن من الوشاة ومن فقدهن  
لعطفه وأمن لا يجدن عنده إلا الإعراض والصدوف ، يقول على لسان إحداهن :  
أمن أجلِ وإش كاشحٍ بِسَمِيمَةٍ مَسَى بيننا صدَّقته لم تكذب  
وأناح له ذلك أن يصور عواطف المرأة ونفسيها وما يتعمقها من دقائق  
الحب وما يثير في قلبها من المشاعر الرقيقة ، وكيف تتخذ الأسباب لاسرِّضاء  
عاشقها حين تراه ينصرف عنها ، وكيف تتقدم لها بعض صديقاتها تحاول  
أن تعيد الصفاء بينهما ، يقول :

(١) اسبَطرت : أسرعت

قالت على رِقْبَةٍ يوماً لجارتها ما تأمرين فإن القلبَ قد سُغِلًا<sup>(١)</sup>  
 فجوابتها حصانٌ غير فاحشةٍ بِرَجْعِ قولٍ وأمرٍ لم يكن خطِلاً  
 أفنئى حياءك في سننٍ وفي كرمٍ فلستِ أولَ أنثى عُلِّقَتْ رجلاً<sup>(٢)</sup>  
 لا تظهرى حُبّه حتى أراجعه إني سأكفيكه إن لم أمت عَجلاً  
 وترضى خطمتها وتوصيها أن تكذبَ عنده الوشاة ، وتتوسل إليها أن لا تسرف  
 في لومه وعذله :

فإن عهدي به واللهُ يحفظه وإن أتى الذنب ممن يكره العذلا  
 وتكثر الرسل بينه وبين محبوباته في ديوانه . ونراه يعمد إلى مراسلة بعضهم ،  
 على شاكلة هذه الرسالة التي أرسل بها إلى الثريا ، وقد سار عنها أو سارت عنه :

كتبتُ إليك من بلدى كتابَ مولدٍ كَمِيدِ  
 كَثِيبِ واكفِ العينِ بين بالحسرات منفرد<sup>(٣)</sup>  
 يؤزقه لهيبُ الشرِّ قِ بين السُّحْرِ والكَبِدِ<sup>(٤)</sup>  
 فيمسكُ قلبه بيدٍ ويمسحُ عينه بيدٍ

وتردُّ عليه الثريا شعراً<sup>(٥)</sup> ، وهو يعد أول من اتخذ هذا الأسلوب من  
 تبادل الرسائل بينه وبين صواحيبه ، وقد تبعه فيه العباسيون .

ومن أهم ما يَطْبَعُ غزله هذا الحوار القصصى الذى رأيناه على لسان محبوباته  
 يصفن فيه لجاراتهن وأخواتهن وجواريهن حبهن له وهيامهن به . ونراه يعمد أحياناً  
 إلى تصوير اقتحامه لليل والأهوال والأحراس على بعض صواحيبه على نحو ما  
 نعرف في قصيدته :

أمن آل نَعْمٍ أنتِ غادٍ فمُبَكِّرُ  
 غداة غدٍ أم رائحٍ فمُهَجِّرُ<sup>(٦)</sup>

(١) رقية : انتظار .  
 (٢) أفنى حياءك : احتفظى به .  
 (٣) واكف العيشين : سائل الدموع .  
 (٤) السحر : الرقة .  
 (٥) أغاني (دار الكتب) ١/٢٣٥ وما بعدها .  
 (٦) غداة : من الغدوة وهى البكرة أو أول النهار ، رائح : من الرواح وهو العشى أو من الزوال إلى الغروب . مهجر : من الهجرة وهى نصف النهار . وانظر فى هذه القصيدة وشرحها المبرد ص ٣٨١ ، ٥٧٠ .

ويعمى فيصور قضاءه الليل في الحديث معها حتى تباشير الصباح ، وكأنه في ذلك يحاكي امرأ القيس في معلقته إذ يصف بعض مغامراته ، ولكن خلافاً واضحاً يقوم بينهما ، فامرؤ القيس يغامر مع نساء متزوجات ، أما عمر فيغامر مع فتيات نيبلات ، وهى عنده مغامرات لا تتعدى اللقاء والمتعة بالحديث . وعمر من هذه الناحية صريح ولكنها صراحة لا تنهى إلى إباحية ولا إلى إثم . ومن ثم كنا ننفي القيصص التي تزعم أن بعض الخلفاء حين حج نفاه إلى الطائف أو إلى دهلك إحدى جزر البحر الأحمر ، ونظن خطأً أن هذا من انتحال الرواة . ويقولون إنه مات وقد قارب السبعين أو جاوزها<sup>(١)</sup> ، وإذا صح ذلك يكون قد توفى حوالى سنة ثلاث وتسعين للهجرة .

### الأحوص<sup>(٢)</sup>

أوسى من الأنصار من أهل المدينة ، اسمه عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم ابن ثابت ، وجده عاصم حسمى الدبّر أى التحل ، إذ بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بنى تليان في نفر ، فحاربوهم في يوم يسمى يوم الرجيع . وما قتله أرادوا أن يصلبوه ، فحمته الدبر منهم نهراً حتى إذا جنّ الليل أمطرت السماء فاحتمله السيل ، فسمى حمى الدبر . ونخال أبيه حنظلة بن أبي عامر الذى قتل يوم أحد وقال عنه الرسول إن الملائكة لتغسله ، وقد افتخر بهما الأحوص جميعاً ، فقال :

غَسَلَتْ خَالِيَ الْمَلَائِكَةُ الْأَبْرَارُ مَبْتَأَ طُوبَى لَهُ مِنْ صَرِيحٍ

وَأَنَا ابْنُ الَّذِي حَمَتْ لَحْمَهُ الدَّبْرُ قَتِيلُ اللَّحْيَانِ يَوْمَ الرَّجِيْعِ

وإنما لقب الأحوص لخوص كان في عينه ، وهو ضيق في مؤخرهما . ويقال إنه كان أحمر شديد الحمرة . وهو مثل ابن أبي ربيعة عاش للحب

سلام ص ٥٣٤ والشعر والشعراء ١/٤٩٩

والموضح ص ١٨٧ والاشتقاق ص ٤٣٧ والخزاعة

١/٢٣١ وحديث الأربما، ١/٣٢٩ وكتابتنا

شعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بنى أمية

ص ١١٤ .

(١) الأغاني (دار الكتب) ١/٧١

(٢) انظر في ترجمة الأحوص وأخباره

الأغاني (طبع دار الكتب) ١/٢٩٤ ،

٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٢٢٤/٤ وما بعدها ،

٢٥٤/٦ وما بعدها ، ٦٤/٩ وما بعدها وابن

والغزل، غير أنه فيما يظهر لم يكن ثرياً، ومن ثمّ كان يرحل كثيراً إلى دمشق يمدح خلفاء بني أمية وينال عطاياهم الجزيلة، يقول:

وما كان مالى طارفاً من تجارةٍ وما كان ميراثاً من المال مُتَلدداً  
ولكن عطايا من إمامٍ مباركٍ ملاً الأرض معروفاً وجوداً وسؤدداً  
وله مدائح مختلفة في الوليد بن عبد الملك وعبد العزيز بن مروان وعمر ابنه  
ويزيد بن عبد الملك. وأخباره تدل على أنه كان فيه طيش شديد، ولعله من  
أجل ذلك كان يصطدم بكثير من معاصريه، فبهجوم هجاء قبيحاً. وهو  
في غزله شديد الصباية، يستأثر الحب بقلبه ويملك عليه كل شيء، حتى  
ليقول:

إذا أنت لم تعشق ولم تدّر ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جليماً  
فالحب الحياة ومن لم يعشق عدوّ من الأموات، بل من الجهاد، بل من  
الحجارة أو أشد قسوة. وهو يعلن حبه إعلاناً، يعلن صبوته وثورة نفسه. وكان  
فاسد الخلق، فانصرفت الفتيات والنساء عنه، إذ رأينه يذهب بعيداً في  
التصريح، على شاكلة قوله:

تعرض سلماك لما حرم تَضَلَّ ضلالك من مُحْرَمٍ<sup>(١)</sup>  
تريد به البرّ يا ليتهُ كفافاً من البرّ والمأثم<sup>(٢)</sup>  
وأشعاره في أم جعفر الأوسية أنقى غزلياته، وكانت تدفعه عنها دفعاً شديداً،  
وكذلك كان يدفعه عنها أخوها أيمن، حتى ليروى أنه أصلاه يوماً سياتاً حامية،  
وفيها يقول:

أدورُّ ولولا أن أرى أمّ جعفرٍ بأبياتكم ما دُرْتُ حيث أدورُّ  
أزورُّ البيوتَ اللاصقاتِ ببيتها وقلبي إلى البيت الذي لا أزورُّ  
وما كنتُ زواراً ولكن ذا الهوى إذا لم يَزُرْ لا بد أن سيزور

(١) حرمت: دخلت الحرم مثل أحرمت.

(٢) يقول: ليتني تعادل إثمى وبرى،

ويقول :

وما هو إلا أن أراها فجاءةً فأُبْهتَ حتى ما أكاد أُجيبُ  
لكِ اللهُ إني واصلٌ ما وصلتني ومُثْنٍ بما أوليتني ومُثِيبُ  
أبْثُك ما ألقى وفي النفس حاجةٌ لها بين جِلْدِي والعظامِ دَبِيبُ  
ومضى ينظم فيها أشعاره ، وهي تزداد كرهاً له وازوراراً عنه . ونراه مشغولاً  
بجميلة المغنية وناديا المشهور في المدينة ومن كنَّ فيه من الإماء مثل الذَّلْفَاءِ  
وعقيلة وسلامَة القس وله فيهن غزل كثير ، كن يغنين فيه ، من مثل قوله  
في الذلفاء :

إنما الذَّلْفَاءُ هُمِّي فليدعني من يلوُمُ  
حَبِّبَ الذَّلْفَاءِ عندي منطِقُ منها رَحِيمُ  
حُبِّها في القلبِ داءٌ مستكنٌ لا يَريمُ<sup>(١)</sup>

وكانت سلامة القس أكثرهن عطفاً عليه وبيراً به ، فنظم فيها غزلاً كثيراً ،  
يصورُ كلفه بها أشد الكلف وتهالكه عليها أشد التهالك على شاكلة قوله :

يا دينَ قلبك منها لست ذاكرها إلا ترقرق ماء العين أو دمعا<sup>(٢)</sup>  
لا أستطيع نزوعاً عن محبَّتِها أو يصنع الحبُّ بي فوق الذي صنعا  
وزادني كلفاً في الحب أن منعتُ وحبُّ شيء إلى الإنسان ما مُنعا  
وهو في هذا الغزل بالإماء والحواري يختلف عن ابن أبي ربيعة الذي كان  
لا يتغزل كما مرَّ بنا إلا بالحرائر النيبلات من القرشيات والعربيات . وهو يختلف  
عنه أيضاً في بعده في التصريح ، إذ كان لا يتحرج أحياناً من إباحة ، ومن  
ثمَّ شكاه أهل المدينة لأبي بكر بن حزم عامل سليمان بن عبد الملك : فأقامه على  
البُلْسُ للناس . ولما ولي عمر بن عبد العزيز أمر بنفيه إلى دهلك : فظل بها طوال  
خلافته ، وولى يزيد بن عبد الملك : فشفعت له سلامَة - وقد صارت إليه -  
عناهُ فعفا عنه . ولما رُدَّتْ إليه حريره زار دمشق . وتغنَّى بيزيد وانتصاراته على  
ابن المهلب طويلاً . ويقال إنه توفِّي حوالي سنة ١١٠ للهجرة .

(٢) دين حسد : داء .

(١) لا يريم : لا يبرح .

العرجبي<sup>(١)</sup>

لُقِّبَ هذا اللقب لضيعة له قرب الطائف تسمى العرَّج كان ينزل بها ، وهو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان ، من أهل مكة . ويقول الرواة إنه كان أشقر جميل الوجه ، وإنه سُهر بالغزل ونَحَا فيه نحو عمر بن أبي ربيعة وتشبَّه به فأجاد .

وهو يختلف عنه من وجوه كثيرة ، إذ لم تكن له نهايته في أهله ، وكان مشغولاً باللهو والصيد ، وكانت فيه فتوة وفروسية ، حتى عُددَ في الفرسان ، ومن ثمَّ اجتذبه حروب مسلمة بن عبد الملك بأرض الروم ، فأبلى فيها بلاء حسناً ، إذ كان من أفرس الناس وأرماهم وأبراهم لسهم . وهو لا يختلف في ذلك عن عمر فحسب ، بل هو يختلف معه أيضاً في أنه كان يسرف في فتوته ، حتى ليخرج إلى شيء من الإباحية ، على شاكلة قوله :

قالت رضىتُ ولكن جئتَ في قمرٍ      هَلَّا تلبَّثتَ حتى تدخلَ الظلمُ  
وقوله :

باتا بأنعم ليلةٍ حتى بسداً      صُبْحُ نلوح كالأغرَّ الأشقرِ  
فتلازما عند الفراق صبايةً      أخذَ الغريم بفضل ثوب المُعسر<sup>(٢)</sup>  
وهو لا يقف بمثل هذه المعاني عند نفسه ، بل يرى بها حتى الحواجج الناسكات ، يقول في إحداهن وقد سمرت عن وجه جميل :

أماطت كساء الخز عن حرِّ وجهها      وأدنت على الخدين بُرداً مهلهلاً  
من اللاء لم يحجججنَ يبعينَ حِمْبَةً      ولكن ليقتلنَ البريء المغفلاً  
ونجده يختلف إلى دار جميلة في المدينة ، ويبدو منه ما يجعلها تُقسَّم أن لا تدخله منزلها لكثرة عبثه وسفهه ، ويشفع له الأحوص عندها ، فتستقبله وتغنيه في قوله :

والشمر ٥٥٦/٢٠ والاشتقاق ص ٧٨ وحديث الأربعة ٣١٦/١ وقد طبع ديوانه في العراق .  
(٢) تلازما : تماثقا . الغريم هنا : الدائن .

(١) انظر في ترجمة العرجبي وأخباره الأغانى (طبع دار الكتب) ٣٨٣/١ وما بعدها ، ١٨٤/٨ ، ٢٣٠ ، ٢٧٦ والشمر

ألا قاتل الله الهوى كيف أخلقاً فلم تُلفه إلا مشوباً ممذقاً<sup>(١)</sup>  
وما من حبيبٍ يستزير حبيبه يعاتبه في الودِّ إلا نفرقاً  
لقد سنَّ هذا الحبَّ من كان قبلنا وقاد الصِّبا المرءَ الكريمَ فأعنقاً<sup>(٢)</sup>  
وكان يمضي في التغنى بهذا الغزل لا ينجل ولا يستحي من الجموح فيه ،  
إذ كان جريئاً ، بل كان عنيفاً ، وهو عنف نراه في تتبعه للنساء المتزوجات  
يتغزل بهن ، كما نراه في ظلمه لمولى لأبيه قتله وسلط عبيده على امرأته ، وأيضاً  
فإننا نرى هذا العنف في هجائه لمحمد بن هشام المخزومي ، إذ أخذ يتغزل بزوجه  
جبيرة المخزومية وأمه جبيداء بنت عفيف ليفضحه بمثل قوله :

عوجي على فسلمى جبرُّ فِيمَ الصُّدودُ وأنتم سَفَرُ  
وقوله :

عوجي علينا ربة الهودج إنك إن لا تفعلني تحسرجي  
أيسرُ ما نال محبُّ لدى بين حبيبٍ قوله عرَّج  
نقض إليكم حاجةً أو نقل هل لي مما بي من مخرج  
فلما ولي محمد إمارة مكة لهشام بن عبد الملك أقامه على البلس وحسه ،  
وظل في سجنه تسع سنوات إلى أن مات ، وله أشعار كثيرة بأسى فيها على ما صار  
إليه من عذاب السجن ، يقول فيها بيته المشهور :

أضاعوني وأى فتي أضاعوا ليوم كريمةٍ وسداد ثغر<sup>(٣)</sup>  
وما يستجاد له قوله :

ارجع إلى خلقك المعروف ديدنه إن التخلق يأتى دونه الخلق  
ويقال إن الوليد بن يزيد اقتصَّ للعرجي من محمد بن هشام المخزومي حين  
صارت الخلافة إليه ، إذ لم يرعَ حرمة قرشيته ونسبه في بني أمية .

(١) أخلق : بل . مذقاً : مشوباً ومخلوطاً . ميدانه .  
(٢) أعنق : ساريراً منبطاً ، يريد أن  
الصبا إذا قاد المرء الكريم انقاد له وجرى في  
(٣) السداد : ما يسد به الخلل . وسداد  
الثغر : ما يسده من الخيل والشجمان .

## شعراء الغزل العُدْرِي

الغزل العُدْرِي غزل نقي طاهر ممعن في النقاء والطهارة ، وقد نُسب إلى نبي عُدْرَة إحدى قبائل قضاة التي كانت تنزل في وادي القُرَيْ شَمَالِي الحِجَاز ، لأن شعراءها أكثروا من التغنّي به ونَظَّمه ، ويُرَوَى أن سائلا سأل رجلا من هذه القبيلة ممن أنت ؟ قال : من قوم إذا عشقوا ماتوا ، ويروى أيضاً أن سائلا سأل عروة بن حزام العُدْرِي صاحب عَقْرَاء : أصحیح ما يُروى عنكم من أنكم أرق الناس قلوباً ؟ فأجابه : نعم والله لقد تركت ثلاثين شاباً قد خامرهم الموت وما لهم داء إلا الحب .

ولم تقف موجة الغزل العُدْرِي لهذا العصر عند عُدْرَة وحدها ، فقد شاع في بوادي نجد والحجاز ، وخاصة بين نبي عامر ، حتى ليصبح ظاهرة عامة تحتاج إلى تفسير ، ولا شك في أن تفسيرها يرجع إلى الإسلام الذي طهر النفوس ، وبرأها من كل لثم . وكانت نفوساً ساذجة لم تعرف الحياة المتحضرة في مكة والمدينة ولا ما يُطَوَى فيها من لهو وعبث ومن تحلل أحياناً من قوانين الخلق الفاضل على نحو ما مرّ بنا عند الأحوص والعرجي ، وهي من أجل ذلك لم تعرف الحب الحضري المترف ولا الحب الذي تدفع إليه الغرائز ، فقد كانت تعصمها بداوتها وتديتها بالإسلام الخفيف ومثاليته السامية من مثل هذين اللوين من الحب ، إنما تعرف الحب العفيف السامى الذي يتصلّى المحب بناه ويستقر بين أحشائه ، حتى ليصبح كأنه محنة أو داء لا يستطيع التخلص منه ولا الانصراف عنه .

وفي كتاب الأغاني من هذا الغزل مادة وفيرة نقرأ فيها لوعة هؤلاء المحبين وظمأهم إلى رؤية معشوقاتهم ظمأ لا يقف عند حد ، ظمأ نحس فيه ضرباً من التصوف ، فالشاعر لا ينبي يتغنى بمعشوقته ، متذلاً متضرعاً متوسلاً ، فهي ملاكة السماوى ، وكأنها فعلاً وراء السحب ، وهو لا يزال يناجيتها مناجاة شجية ، يصور فيها وجده الذي ليس بعده وجده وعذابه الذي لا يشبهه

عذاب . وتعشى به الأعوام لا ينساها ، بل يذكرها في يقظته ويحلم بها في نومه ، وقد يصبح كهلاً أو بصير إلى الشيخوخة ، ولكن حبها يظل شاباً في قلبه ، لا يؤثر فيه الزمن ولا يرق إليه السلوان ، حتى ليظل بعُشَى عليه ، بل حتى ليُجَنَّ أحياناً جنوناً .

وتقرن بأشعار هذا الغزل أسماء كثيرة ، كما يقرن به قصص غزير ، وهو قصص فيه بساطة وسداجة حلوة . قصص يصور لنا حياة هؤلاء العشاق العذريين المتبدين ، وقد أحكم الرواة نسجه ، إذ مضوا يلفقون فيه عقدة نفسية ، تحيلوا لسامعيهم أنها عقدة حقيقية ، وذلك أنهم زعموا أنه كان من تقاليد العرب أن لا يزوجوا فتياتهم ممن يتغزلون بهن ، لما يجلبن هن من فضيحة بين العرب . وهو تقليد لم يُعرَف في جاهلية ولا إسلام . وقد مضوا يقولون إن السلطان كان يهدر دماء هؤلاء الغزليين ، كأنهم أتوا جناية عظيمة ، ولو قتل السلطان في الغزل لقتل أمثال الأحوص ، لا هؤلاء المتعطفين أصحاب الحب الطاهر الشريف ، وقد حرّم القرآن الكريم والحديث النبوي قتل النفس بغير حق . ولا شك في أن هذا كله قصص لفقها الرواة كى يوجدوا لهذا الغزل عقدة ، بعثت على ما أحسوه عند هؤلاء العشاق من إحساس بالحرمان الشديد . وإذا كان خيال الرواة لعب في أخبارهم فإنه لعب أيضاً في أسمائهم ، إذ اخترع من لدنه لبعض هذه الأخبار وما طوى فيها من أشعار أشخاصاً لعلهم لم يوجدوا أبداً .

وارجع إلى أخبار مجنون بنى عامر وأشعاره التي احتلت في الجزء الثاني من كتاب الأغاني تسعين صحيفةً ونيفاً فستجد الأصمعي يقول : « رجلان ما عرفا في الدنيا قط إلا بالاسم : مجنون بنى عامر وابن القيرية وإنما وصفهما الرواة » . ويقول ابن الكلبي : « حدثت أن حديث المجنون وشعره وضعه قتي من بنى أمية كان يهوى ابنة عم له ، وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديث المجنون ، وقال الأشعار التي يروها الناس له ونسبها إليه » .

وقد يكون اسم العاشق من هؤلاء العذريين حقيقياً . غير أن الرواة أضافوا إليه أشعاراً وأخباراً كثيرة ، ومن خير من يمثل ذلك قيس بن ذريح . يقول أبو العرج في ترجمته مجنون بنى عامر نقلاً عن الجاحظ : « ما ترك الناس شعراً مجهول القائل في ليل إلا

نسبوه إلى المجنون ، ولا شعراً هذه سبيله قيل في لُبْنَى إلا نسبوه إلى قيس بن ذَرِيح . وقد تُفصِّح القصة المضافة إلى بعض هؤلاء العشاق عن انتحالها وأنها من صنع الرواة وإن لم ينصّ على ذلك القدماء ، وخير ما يمثل ذلك قصة (١) وضَّاح اليمن التي تذهب إلى أنه عشق أم البنين زوجة الوليد ، وأنها هويته ، فكانت تدخله عندها وتخفيه في صندوق ، وعرف ذلك زوجها ، فحضر برأ عميقة ، رماه فيها ، وهبيل عليه التراب وسويت الأرض .

وعلى هذا النحو تلقانا في هذا الغزل العذرى أسماء وأخبار خيالية من صنع الرواة ، غير أن وراءها أسماء وأخباراً كثيرة ، لا يرقى إليها الشك . والمهم أن الظاهرة صحيحة ، فقد وُجد هذا الغزل العذرى في العصر الأموي بنجد وبوادي الحجاز ، وكثر أصحابه وكثرت أشعاره ، حتى غدت لوناً شعبياً عاماً ، ولعل شعبيتها هي التي أكثرت من القصص حولها ، كما أبهمت بعض من نظموها . وقد اختار الرواة أشخاصاً ، جعلوا منهم أبطالا ونسبوا إليهم كثيراً من تلك الأشعار . وخاصة إذا اتفق أن كان فيها اسم محبوبة هذا البطل ، على نحو ما صنعوا بالأشعار التي وجدوا فيها اسم لُبْنَى ، فإنهم أضافوها - كما لاحظ الجاحظ - إلى قيس ابن ذَرِيح .

ومن الأشخاص الحقيقية في هذا الغزل عُرْوَة بن حزام العُدْرِي وصاحبه عَقْرَاء ، وقد ترجم له صاحب (٢) الأغاني وروى له أشعاراً رقيقة من مثل قوله :

وإني لتُعرفني لذكراك رَعْدَةٌ لها بين جلدي والعظام دَبِيبُ  
فوالله لا أنساك ما هبَّت الصِّبَا وما أعقبتهما في الرياح جَنُوبُ  
ومنهم الصَّمَّةُ (٣) القُشَيْرِي . وكان من فتيان بني عامر وشجعانهم ، وأحب ابنة عم له تسمى رِيثًا ، وخطبها من أبيها فأثر عليه شاباً موسراً ، فزاد

الشعر والشعراء ٢٠٤/٦٠٤ وذييل الأملال ص ١٥٧  
والخزائن ١/٥٣٣ .  
(٣) ترجمته في الأغاني (طبع دار الكتب)  
٢/٦ وما بعدها وانظر قصيدته العينية في  
الطرائف الأدبية ص ٧٦ .

(١) انظرها بترجمته في الأغاني (طبع دار  
لكتب) ٢١٨/٦ وما بعدها وراجع أيضاً  
هذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/٢٩٥  
وحدِيث الأربعماء ١/٢٩٣ .  
(٢) أغاني ( ساسي ) ١٥٢/٢٠ وانظر

شغفه بها ، وأخذ ينظم الأشعار فيها : ثم رأى أن يغزو في طبرستان لعله ينساها ، فخرج وذكرها لا تفارقه حتى قتل في غزوة واسمها على شفتيه ، ومن قوله في عينية له بديعة :

وأذكر أَيَّامَ الْحِمَى ثم أنشئ على كَيْدِي من خشية أن تصدعاً  
ومنهم كثيرٌ عَزَّةٌ ، وقد مضت ترجمته ، وذو الرمة وسنترجم له في شعراء  
الطبيعة . ويدخل فيهم جماعة من أتقياء مكة والمدينة ، على رأسهم عبد الرحمن  
ابن أبي عمَّار الجُشَمِي وعروة بن أذينة وخبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وكان  
عبد<sup>(١)</sup> الرحمن من نَسَاك مكة ، ولقب بالقَسَّ لسكته ، وتصادف أن استمع يوماً  
إلى سَلَامَةَ ، فشغف بها ، وشاع ذلك ، فلقبها الناس بلقبه وسموها سلامة  
القسن ، وفيها يقول :

سَلَامٌ هل لي منكم ناصرٌ أم هل لقلبي عنكم زاجرٌ  
قد سمع الناسُ بوجدِي بكم فمنهم اللائمُ والعاذرُ  
وكان عروة<sup>(٢)</sup> من فقهاء المدينة ومحدثيها ، ومن الطريف أنه كان يوقع شعره  
ويضع له الألحان بنفسه ، وبذلك تفهم وفرة الموسيقى في غزله ، فهو الحان  
وأنغام على شاكلة قوله :

إن التي زعمت فؤادك ملها جعلت هواك كما جعلت هوى لها  
فيك الذي زعمت بها وكلا كما يُبدى لصاحبه الصبابة كلها  
بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقه فأدقها وأجلها  
منعت تحيتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرها لنا وأقلها

أما ابن<sup>(٣)</sup> عتبة فكان أحد الفقهاء السبعة المقدمين في المدينة الذين حمل  
عنه الفقه والحديث ، وكان ضريراً ، كما كان رقيقاً مرهف الإحساس ، وله

(١) انظر في حبه لسلامة الأغاني (طبع دار  
الكتب) ٣٣٤/٨ وما بعدها .  
(٢) راجع في ترجمته الأغاني (طبعة ساسي)  
١٠٥/٢١ والشمر والشراء ٥٦٠/٢ والموشح  
٥١/٢ وتهذيب التهذيب ونكت الهيبان ١٩٧ .  
ص ٢١١ .  
(٣) انظر ترجمته في الأغاني (طبع دار  
الكتب) ١٣٩/٩ وما بعدها وصفة الصفوة

غزل كثير في زوجته عثمة بعد طلاقه لها يصور فيها حبه وندمه وأمله من مثل قوله :

لعمري لئن شطتْ بعثمةَ دارها لقد كدتُ من وشكِ الفراقِ أليح<sup>(١)</sup>  
أروح بهمَّ ثم أغدو بمثله ويحسبُ أني في الثياب صحيح

ومن طريف ما يلقانا في هذا الحب العذري بكاء العشوقات لمن حرّموا منهن، وماتوا على حبهن ، ولعل أكثرهن بكاء على معشوقها ليلي<sup>(٢)</sup> الأخييلية الخفاجية العامرية ، وكان قد تعلق بها من قومها فتى شاعر شجاع يسمى توبة ابن الحمير ، وشُغف بها شغفاً ، والتاع قلبه ، وهام بها هياماً شديداً ، حتى ليقول :

ولو أن ليلى الأخييلية سلّمتْ عليّ ودوني تربةً وصفائحُ  
لسلّمتْ تسليمَ البشاشةِ أوزقاً إليها صدّي من جانب القبر صائح<sup>(٣)</sup>

وظل يلهج باسمها إلى أن قُتل في بعض الغارات سنة ٨٥ للهجرة فبكته ليلى بقصائد كثيرة تصوّر ما أوقده في فؤادها من جنوة الحب ، من مثل قولها :

أيا عينُ بكّي توبةَ بن حميرٍ يسحّ كفيض الجدول المتفجّر  
لتبك عليه من خفاجة نسوةٍ بمساء شئون العيرة المتحدّر

وقولها :

وآليتُ لا أنفك أبكيك ما دعتُ عليّ فننّ ورقاءٍ أو طار طائرُ  
وكل شبابٍ أو جديدٍ إلى يلىّ وكل امرئٍ يوماً إلى الله صائرُ

١/١١/٢٠٤ وما بعدها والشعر والشراء ١/١٦٦

والأمالى للقال ١/٨٦ وما بعدها .

(٣) زقا : صاح .

(١) أليح : أشفق وأجزع .

(٢) انظر في ليل الأخييلية وأخبارها مع

توبة ترجمتها في الأغاني (طبع دار الكتب)

ويقال إنها ماتت في إحدى زياراتها لقبره ، فدفنت إلى جنبه . ونقف قليلا عند بطلين من أبطال هذا الحب العذرى ، هما : قيس بن ذريح عاشق لُبنى وجميل عاشق بشينة .

### قيس<sup>(١)</sup> بن ذريح

من قبيلة كنانة ، كانت عشيرته تسكن في ضواحي المدينة ، وعُرف بأنه رضيع الحسين بن علي ، ولا نعرف شيئاً عن نشأته ، بل تُساق لنا قصة حبه ، كأنها هي كل حياته . وهي قصة محبوكة الأطراف ، إذ يُروى أنه مر في رحلته بديار لُبنى الخزاعية ، فراها ، وقعت في قلبه ووقع في قلبها . وذهب إلى أبيه ، وكان كثير المال موسراً ، يعرض عليه أن يخطبها له ، فأبى . وحاول أن يجد عند أمه معونة على أبيه ، فلم يجد عندها ما أراد . فلجأ إلى رضيعه الحسين بن علي ، فتوسط له عند أبيه وأبي لُبنى ، وأعظما هذه الوساطة ، وتزوج العاشقان ، غير أنهما لم يُرزقا الولد ، وداخلت أم قيس الغيرة من كلف ابنها بلبنى . ومرض قيس ، فأوعزت إلى أبيه أن يغيره بطلاقها والزواج من أخرى ، رجاء أن يرزقه الله الولد . وأخذ الأبوان يُلحَّحان عليه بعد شفائه من علته أن يفارقها وصدع لمشيئتهما . وتولاه جزع شديد ، حتى قبل أن تبرح دارها إلى دار أبيها ، فقد تصادف أن نَعق غُرَاب قبل رحيلها ، فتشام تشاؤماً شديداً ، ونظم في نعيه أشعاراً كثيرة ، من مثل قوله :

لقد نادى الغرابُ بِبِنِي لُبنى      فطار القلبُ من حذر الغرابِ  
وقال : غَدًا تباعدُ دارُ لُبنى      وتنسأى بعد وُدِّ واقترابِ  
فقلت: تعستَ ويحك من غُرَاب      وكان الدهرَ سعيك في تَبَابِ

ورحلت لُبنى ، فاضطربت جذوة الحب في نفس قيس اضطراباً ، ووجد بلُبنى وجداً ليس مثله وجد ، ومضى لا ينعم بطعام ولا بشراب ، يذكرها

(١) ٦١٠/٢ وأمالى القانى ٣١٨/٢ وراجع الموشح ص ٢٠٦ وحديث الأربعاء ١/٢٥٦ .

(١) انظر في قصة قيس الأغاني (طبع دار الكتب) ١٨٠/٩ وما بعدها والشعر والشعراء .

مستيقظاً ويطوف به خيالها نائماً ، ويقول في غرامه بها الشعر من مثل قوله :

لقد لاقيتُ من كلني بلُبنِي      بلاء ما أُسبِغ به الشرابِ  
إذا نادى المنادى باسم لُبنِي      عَييتُ فما أُطيق له جوابِ

وقوله :

وإني لأهوى النومَ في غير حِينِه      لعل لقاء في المنام يكونُ  
تحدّثني الأحلامُ أني أراكمُ      فياليت أحلام المنام يقين  
وكانت لُبنِي تسمع بوجده وشعره ، فلا يهنا لها عيش ، وتبكي مصبرها  
ومصيره . ويُرَوَى أن غلاماً أتاها يوماً بأربعة غربان ، فذكرت أشعار قيس  
في غراب البَين ، وأخذت تتف ريشها وهي تصيح بأشعار مختلفة من مثل  
قولها :

ألا يا غُرابَ البَينِ لُونُك شاحبٌ      وأنت بلوعات الفراق جديرُ  
فلا زلت مكسوراً عديماً لناصِرٍ      كما ليس لي من ظالمِي نصير  
ولما أضنى الحب قيساً رِقاً له بعض رفاقه ، فواعده أن يخرجوا معه إلى ديار  
لُبنِي لعله يحظى برؤيتها ، فضى معهم وهو ينشد :

لقد عدّبتني يا حبّ ليلى      فقنّع إما بموتٍ أو حياةٍ  
فإن الموتَ أروحُ من حياةٍ      تدوم على التباعد والشتاتِ

ووقعت عينه عليها ، فخر مغشياً عليه ، وعادوا به ، وهو لا يكاد يفيق  
من غشيته . وأشار عليه نفر أن يحجّ لعله يسلوها ، فحجج ورآها هناك ، فعاوده  
فُتُونه ، وأخذت تسيل عبراته ، وهو يُنشد فيها أشعاره . ولقيها فعرف أنها ما زالت  
تحفظ له العهد ، وعاد من الحج يتغنى بحبه ، على شاكلة قوله :

تعلّق رُوحِي رُوحَهَا قبل خَلقنا      ومن بعد ما كنا نِطافاً وفي المَهْدِ  
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا      وليس إذا متنا بمنصَرِمِ العَهْدِ  
ولكنه باقٍ على كل حادث      وزائرنا في ظلّمة القبر واللَّحْدِ

وما زال به أبوه يلحُّ عليه أن يتزوج من أخرى ، لعله ينسى صاحبه .  
 وتمضى القصة فترعم أنه رأى في بعض أحياء العرب فتاة تسمى لبني فيها  
 مخايل صاحبه ، فتزوجها ، ولكن حنينه إلى صاحبه الأولى عاوده ، وكأنما لم  
 يكن هناك سبيل إلى إطفاء جذوة هذا الحب . وتزعم القصة أيضاً أن أباها شكاه  
 إلى معاوية فأهدر دمه إن تعرّض لها ، وأرسلت إلى حبيبها بالخبر مشفقة عليه ،  
 ويروون أنها تزوجت من غيره ، عله ينساها ، ولكن أنى له ؟ لقد أمضه الغرام ،  
 ومضى إلى ديار قومها فوجدها قد رحلت مع زوجها ، فوضع خده على التراب ،  
 وبكى أحراً بكاء منشداً :

وإن تك لبنتي قد أتى دون قربها      حجابٌ منيعٌ ما إليه سبيلُ  
 فلإن نسيمَ الجوِّ يجمع بيننا      ونُبصرَ قرنَ الشمسِ حين تنزل  
 وأرواحنا بالليل في الحَيِّ تلتقي      ونعلمُ أنا بالنهار نَقِيلُ<sup>(١)</sup>  
 وتجمعنا الأرضُ القَرَارُ وفوقنا      سماءُ نرى فيها النجومَ تجول  
 واشتدت به المحنة ، واشتد به الوجد والهيام ، والحياة من حوله وحول معشوقته  
 تمنع في القسوة ، وهو لا يزال ينشد فيها الأشعار من مثل قوله :

إلى الله أشكو ما ألاق من الهوى      ومن حُرِّقٍ تعتادني وزفيرِ  
 ومن ألمٍ للحب في باطن الحشما      وليلٍ طويل الحزن غير قصيرِ  
 وقوله :

وبين الحشما والنحر مني حرارةٌ      ولوعةٌ وجَدٍ تترك القلب ساهيا  
 نمرُّ الليالي والشهور ولا أرى      ولوعى بها يزداد إلا تماديا  
 وقوله :

ألا ليت أياماً مَضِينِ تعودُ      فإن عُدُن يوماً إنني لسعيدُ

(١) نقيل : من القيلولة وهي نصف النهار .

وظل قيس على هذا النحو يشكو حبه وندمه على فراق صاحبه ، حتى رأى رضيعة الحسين بن علي ونفر من قريش تعمقهم التأثر له أن يكلموا زوج لبي في شأنه لعله يردّها عليه . وصدع لمشيئهم راضياً ، فعادت لبي إلى قرّة عينها وظلت عنده حتى ماتت ، فأكبّ على القبر يبكيها ، ولم يزل عليلاً إلى أن لحق بها ، فدفن إلى جنبها .

### جميل<sup>(١)</sup> بن مَعْمَر

لعل حياة جميل أوضح حياة بين الشعراء العذريين ، فقد نشأ في منازل عُدرة بوادى القُرى ، وأخذ يختلف إلى المدينة ، وربما إلى مكة ، فقد كان يلقي ابن أبي ربيعة كثيراً ويتناشدان الشعر ، ويقال إنه حدا يوماً بمروان بن الحكم . ويظهر أنه كان يتصل ببني أمية كثيراً ، ففي أخباره أنه رحل إلى عبد العزيز بن مروان بمصر ولقيه لقاء كريماً .

وكان كثير عزة راوية له . وشعره لذلك أوثق شعر العذريين ، وفي أخباره أنه تلقن الشعر عن هُدبة بن الحشم تلميذ الخطيئة ، ونعرف أن الخطيئة تلميذ زهير ، وكأنه يمت بأسباب قوية إلى هذه المدرسة التي كانت تُعنى بصقل الشعر وتجويده . ونجد له أخباراً أخرى تتصل بتأجيه مع بعض الشعراء الحجازيين مثل الخزيم الكنانى .

نحن إذ نأمن شاعر واضح الشخصية ، عُنى الرواة والناس بأشعاره ، كما عُنى بها مغنو المدينة ومكة ، وهى أشعار يمضى جمهورها في التغنى ببشينة معشوقته ، لإحدى نساء قبيلته ، تحابياً صغيرين ، ولم تلبث أن ألهمته الشعر ، إذ أحبها حباً انتهى به إلى الهيام بها ، وعرفت ذلك فنحته حبها وعطفها ، وأخذت تلتقى به حين شباً في غفلات من قومهما ، وخشى أهلها مغبة هذا اللقاء ، فضيقتوا عليها الخناق ، على الرغم مما عرفوا من أن الحب بينها وبين جميل حب نقي برىء ،

وحدّث الأربعماء ٢٤٩/١ ، ٢٨٧ .. وطبع ديوانه بشير يموت في بيروت ونشره حسين نصار بالقاهرة وانظر في بعض قصائده الأمالى ٨٧/٢ ، ٣٠٣ .

(١) انظر في جميل وأخباره وأشعاره الأغاني (طبع دار الكتب) ٩٠/٨ وما بعدها وابن سلام ص ٤٦١ ، ٥٤٣ ، والشعر والشعراء ٤٠٠/١ وما بعدها والخزانة ١٩٠/١ والموشح ص ١٩٨ وتاريخ دمشق لابن عسّاك ٣٩٥/٣

وأخذت الألسنة في الحى لا تكفُّ عن التعريض بالمتحايين ، فهجرته ، واحتجبت من دونه راغمة ، وهو على ذلك لا يسلوها ، يقول :

ولإني لأرضى من بُشِينَةٍ بالذى لو أبصره الواشى لقرت بِلَابِلُهُ (١)  
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آملُهُ  
وبالنظرة العجلى وبالحوّل تنقضى وأخِرُهُ لا نلتقى وأوائله  
وكانت تلمس فرصة من أهلها أحياناً فتلقاه ، فتشرق الدنيا في عينه ،  
ويسعد سعادة لا حد لها . وخطبها من أبيها فردّه ، لكراهة العرب أن يزوجوا  
فتياتهم ممن يتغزلون بهم ، هكذا تزعم القصة ! . ويزوجها أبوها من فتى في  
القبيلة يسمى نُبَيْهًا ، فتسودُّ الدنيا في عين جميل ، ويلتاع لوعة شديدة ، ويصبح  
حبها كل حياته ، فهو يملك عليه كل شيء ، ويأخذ عليه كل طريق ،  
يقول :

ولو تركت عقلى معى ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلى  
خليلىّ فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حبّ قاتله قبلى  
فلا تقتليني يا بُشَيْنُ فلم أصب من الأمر ما فيه يحلُّ لكم قتلى  
ويقول :

لها في سواد القلب بالحب مِيعَةٌ هي الموت أو كادت على الموت تُشرفُ (٢)  
وما ذكرتكَ النفسُ يا بَشَنَ مرّةً من الدهر إلا كادت النفسُ تتلّفُ  
وإلا اعترتني زفرةٌ واستكانةٌ وجاد لها سجّلٌ من الدمع يذرفُ (٣)  
وما استطرفت نفسى حديثاً لخلّةٍ أسرُّ به إلا حديتكِ أطرفُ

ويمضى يشكو حبه ، ويحاول أن يلقاها ، وتنبئه في بعض الأحيان  
أمنيته فيشور به أهلها ويتوعدونه . ويعنف به حبها ، ويشقى به . ويرحل إلى

(١) البلايل : الوسواس . قرّت : سكنت . (٢) السجل : الدلو العظيمة مملوءة ماء .

(٣) يقصد بالمِيعَة حرارة الحب وقوته .

المدينة وغير المدينة يتغنى باسمها وحبها متحملا من الجهد في عشقها ما يطبق وما لا يطبق ، وتمضى الأعوام وصيوته إليها تزداد به حدة وعنقا ، وذكرادما لا تبرح محيلته ؛ بل تعيش في قلبه كأنها دينه ، وهو يرتل غزله كأنه صلوات يُسودِ عنها عبادته على شاكلة قوله :

ألا لبت شعري هل أبيتنَّ ليلةً      بوادى القرى إني إذن لسعيدُ  
وهل ألقينَ فردًا بشينةً مرة      تجود لنا من ودّها ونجود  
علقتُ الهوى منها وليدًا فلم يزل      إلى اليوم ينمى حبّها ويزيد  
وأفتيتُ عمري في انتظر نوالها      وأبليتُ فيها الدهرَ وهو جديد  
إذا قلتُ ما بي يابشينةُ قاتلي      من الحبِّ قالتْ ثابتٌ ويزيد  
وإن قلتُ رُدِّي بعضَ عقلي أعشْ به      مع الناس قالتْ ذلك منك بعيد  
فلا أنا مردودٌ بما جئتُ طالباً      ولا حبُّها فيا يبيدُ يبيدُ  
يموتُ الهوى مني إذا ما لقيتها      ويحيا إذا فارقتها فيعود

وشعرٌ جميل كله في بشينة على هذا النحو يمتاز بصدق اللهجة وحرارة العاطفة . وقد ظلت بشينة تحفظ له حبه ، إلى أن وافاه القدر بمصر في ولاية عبد العزيز بن مروان عليها ، فبكته ، ويقول الرواة إنها ظلت تبكيه إلى أن لختت به .

### شعراء الزهد

تردد في القرآن الكريم دائماً الدعوة إلى الزهد في الحياة الدنيا ومتاعها الزائل ، وهي دعوة تحمّل في تضاعيفها الحثّ على التتوى والعمل الصالح ، فالمسلم الحق من عاش للأخرة ، ورفض عرض الدنيا ، فلم يأخذ منه إلا بحظ محدود ، حظ يقم أودّه ، ويعده للكفاح في سبيل الله ، ومن ثمّ كان زهد

الإسلام لا يعنى الانقطاع تماماً عن الدنيا كزهد الرهبانية ، بل هو زهد معتدل ، زهد فيه قوة ودعوة إلى العمل والكسب ، يقول جلّ وعز : ( وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ) وهو نصيب ينبغي أن لا يصرف المسلم عن الآخرة ونعيمها الخالد . .

وزاهد الأمة الأول محمد صلى الله عليه وسلم ، وُبرِوى أن رجلاً جاءه فقال : يا رسول الله دلّنى على عمل إذا عملته أحببني الله وأحبنى الناس ، فقال : « ازهّدْ في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس <sup>(١)</sup> » . وقد اندفع وراءه كثير من الصحابة يحمون حياة زاهدة متقشفة ، وعلى رأسهم أهل الصُّفّة ، وهم نفر من فقراء المسلمين اتخذوا صُفّة <sup>(٢)</sup> المسجد منزلاً لهم ، وعاشوا على صدقات الرسول والمُثربين يعبدون الله حق عبادته مرتلين آى الذكر الحكيم . وكان وراءهم كثير من أخلصوا أنفسهم لتقربى الله حق تقواه ، وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وعبد الله ابن عمر وأبو الدرداء وأبو ذرّ ، وعبد الله بن عمرو بن العاص وكان يقطع النهار صائماً والليل قائماً يصلى لربه . وفى ابن سعد وغيره صور كثيرة من هذه المجاهدات والرياضات للنفس <sup>(٣)</sup> .

وجاء عصر الفتوح وجاءت معه الغنائم الوفيرة ، فاقتنى العرب الضياع وشيدوا القصور ، وهم فى ذلك لا ينسون تعاليم الإسلام ، بل إننا نجد بينهم فى كل مصر كثيرين يعيشون للحياة التقية الصالحة ، وسرعان ما تكونت فى كل بلد أقاموا فيه جماعات القراء الأتقياء ، بالإضافة إلى من كان منهم يعيش فى مكة والمدينة ، وأخذ كثير منهم يعيش حياته للنسك والعبادة . وأكبر إقليم نلتقى فيه بهؤلاء النُسّاك والقراء إقليم العراق ، وربما كان لكثرة الحروب فيه أثر فى ذلك ، وكان قوماً انصرفوا عن الفن ، خشية على أنفسهم من التورط فى الإثم ، إلى النسك والعبادة ، كما انصرف إلى ذلك كثير من ممن لم يستطيعوا الانتصار على الأمويين ، فتركوهم وديارهم ، ومضوا يتعبّدون . وكان الخوارج فى

(١) انظر فى هذا الحديث رقم ٣١ فى الأربعين

(٢) انظر فى ذلك كتابنا التطور والتجديد فى

الشعر الأموى ص ٦٠ وما بعدها .

النوعية والبيان والتبيين ١٦٦/٣ .

(٣) الصفة : موضع مظلل من المسجد .

جملتهم جماعة كبيرة من الأتقياء ، ضلّت في اجتهادها وما زعمته من كفر  
الأمويين وجمهور المسلمين ، ولكنها لم تضل يوماً في تقواها .

لذلك كله عمّت في العراق موجة واسعة من التقوى والزهد في الدنيا ونعيمها  
المادى زهداً كثيراً ما تطرّفوا فيه ، إذ أخذت تدخل في ثنايا هذا الزهد  
تأثيرات مسيحية وغير مسيحية ، بحكم ما دخل في الإسلام من الموالى  
والشعوب الأجنبية . على أن المصدر الأساسى لهذا الزهد كان الإسلام نفسه  
وما دعا إليه من رفض الدنيا والابتهاال إلى الله وانتظار ما عنده من النعيم الحق .  
وسرعان ما وجدنا طائفة كبيرة من الوعاظ ، تعيش حياتها تعظ الناس  
وتدعوهم إلى أن يجعلوا العبادة والنسك قرة أعينهم ، وهى لذلك مائى تحدثهم  
— مستلهمة القرآن الكريم — عن قدرة الله في خلقه السموات والأرض ، وعن  
الموت وما ينتظرهم من الحساب يوم القيامة . والحسن البصرى أشهر هؤلاء الوعاظ  
وهو في وعظه دائماً يذكر الموت ، ويذكر النار حتى لكأنه يشاهدها بين عينيه ،  
ويحض حضاً قوياً على الزهد في الدنيا وحطامها . وكان هو وغيره من الوعاظ  
لا يزالون يستشهدون في وعظهم بأشعار لسييد والنابعة الجعدي وغيرهما تلك التى  
تدعو إلى خشية الله وتقواه ، بل ربما استشهدوا بأبيات لبعض الجاهليين ، وخاصة  
تلك التى تصور فناء الدول أو تدعو إلى خلق فاضل .

وطبيعى أن تترك مواعظهم أثراً عميقاً في نفوس الشعراء الذين كانوا يختلفون  
إلى مجالسهم ، وقد مرّ بنا في غير هذا الموضع مدى تأثير الإسلام ومثاليته  
الروحية في الشعراء ، كما مرّت بنا في مواضع مختلفة من هذا الكتاب أشعار  
زاهدة لنفر منهم . ولعل من الطريف أننا نجد بعض الرجاز مثل أبى النجم  
العجلى والعجاج يبدعون أراجيزهم بالحمد لله والثناء عليه ، وكثيراً ما تتحول  
الأرجوزة عند ثانيهما إلى موعظة خالصة . وتلقانا عند بعض الشعراء أدعية  
وابهالات لله من مثل قول ذى الرمة يناجى ربه قبل موته<sup>(١)</sup> :

ياربّ قد أشرفتُ نفسى وقد علمتُ      علماً يقيناً لقد أحصيت آثارى  
يامخرج الروح من جسمى إذا احتضرتُ      وفارج الكرب زحزحنى عن النار

(١) ديوان ذى الرمة ( طبعة كبريدج )

وفريد الآن أن نقف عند نفر منهم تمثلوا في أشعارهم فكرة رفض الحياة داعين للتفرغ إلى العبادات وإلى الأخلاق الرفيعة التي يدعو إليها الإسلام . وأول من نقف عنده عروة بن أذينة فقيه المدينة الذي رُويت له - كما أسلفنا - مقطوعات في الغزل العفيف ، وله أبيات تصور مبدأ مهما شاع بين الزهاد في هذا العصر ، وهو مبدأ التوكل على الله والثقة في أنه لا يترك أحداً بدون رزق يكفيه ، وبلغ من مبالغة بعضهم في هذا المبدأ أن رأوا في السعي والكد نقصاً في التوكل والثقة بربهم . ولا شك في أن هذا المبدأ يفضي إلى طمأنينة نفسية قوية ، كما يفضي إلى طرح الدنيا طرحاً تاماً ، وفي تقريره يقول عروة :

لقد علمتُ وما الإسرافُ من خلقي      أن الذي هو رزقي سوف يأتيني  
أسعى له فيعنيني تطلبُهُ      ولو قعدتُ أناني لا يعنيني  
خيمي كريمٌ ونفسي لا تحدثنِي      إن الإله بلا رزقٍ يخليني

ومن اشتهروا بكثرة أشعارهم في الزهد عبد الله بن عبد الأعلى ، ويظهر أنه كان يستمد في زهده من منابع بعيدة عن الإسلام ، إذ نرى من كتبوا عنه يتهمونه في دينه ، ويقولون إنه كان سيئ العقيدة<sup>(١)</sup> ، وهو في أشعاره يقف كثيراً عند فكرة الفناء من مثل قوله :

يا وبيح هذي الأرض ما تصنع      أكلٌ حتى فوقها تصرعُ  
تزرعهم حتى إذا ما أتوا      عادت لهم تحصد ما تزرع  
وقوله :

من كان حين تُصيب الشمسُ جبهته      أو الغبارُ يخاف الشينَ والشعثا  
ويألفُ الظلَّ كى تبقي بشاشته      فسوف يسكن يوماً راغماً جدثاً<sup>(٢)</sup>

وفي تضاعيف هذا الشعر الزاهد تلقانا دعوة إلى مكارم الأخلاق يستضيء أصحابها بما جاء في الذكر الحكيم من مثالية خلقية نبيلة ، وأكثر من لهجوا بهذه

(١) لسان الميزان ٣/٣٠٥ والمبرد ص ٢٩٤ (٢) الجلدث : القبر .

وما بعدها وانظر أمالي القالي ٢/٣٢٣ .

الدعوة مسكين<sup>(١)</sup> الدارمي القائل :

وَسُمِّيْتُ مِسْكِينًا وَكَانَتْ لِحَاجَةٍ . وَإِنِّي لِمَسْكِينٍ إِلَى اللَّهِ رَاغِبٌ  
ويقول صاحب الخزانة إن له قصيدة ، ذكر فيها طائفة من الشعراء ،  
ناسباً قبر كل منهم إلى بلده ومسقط رأسه ، متخذاً من ذلك العبرة ، ومصغراً  
أمر الدنيا ومهوناً من شأنها ، وقد ذكر له منها عشرة أبيات . وما يتردد في كتب  
الأدب من شعره قوله يعلن رضاه بالقضاء وما قد رله ، وأن الله لا بد أن يكشف  
غمته :

ما أنزل الله من أمرٍ فأكرهه إلا سيجعل لي من بعده فرجاً  
ومن مستحسن شعره قوله :

وَلَسْتُ إِذَا مَا سَرَّنِي الدَّهْرُ ضَاحِكًا      وَلَا خَاشِعًا مَا عَشْتُ مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ  
أَعِيفٌ لَدَى عُنُسِي وَأُبْدَى تَجَمُّلاً      وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَعْفُ لَدَى العُنُسِ  
وَإِنِّي لِأَسْتَحْيِي إِذَا كُنْتُ مُعْسِرًا      صَدِيقِي وَإِخْوَانِي بَأَنَّ يَعْلَمُوا فَقْرِي  
وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعْلَمُ مَكَانَ صَدِيقِهِ      وَمَنْ يَعْزَنَ لَا يَعْدَمُ بِلَاءَ مِنَ الدَّهْرِ  
وهو القائل :

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنْ مِنْ لَا أَخَا لَهُ      كَسَاعٍ إِلَى الهَيْجَا بغير سلاحٍ  
وله أشعار طريفة في الغيرة<sup>(٢)</sup> ، وأن على الزوج أن لا يبالي في اتهام زوجته ،  
حتى لا يغريها بما يخاف منه . على أننا نلاحظ عنده أنه كان يستشعر عصبية  
القبلية في فخره بخضاله ؛ وقد مر بنا موقفه من تولية معاوية لابنه يزيد ، وما نظمه  
في ذلك من شعر . وهو في الحق لم يكن زاهداً بالمعنى الدقيق لكلمة زاهد ،  
إنما كان متأثراً متأثراً عميقاً بالروح الإسلامية ، ومن ثم استلهمها في إشادته  
بشيمه ، ونحن نتركه إلى أبي الأسود الدؤلي وسابق البربري .

(١) انظر في ترجمته الأغاني (ساسي) المرتضى ٤٧٢/١ وابن عساكر ٣٠٠/٥ .

(٢) أمالي المرتضى ٤٧٥/١ وما بعدها .

٦٨/١٨ والشعر والشعراء ٥٢٩/١ ، والخزانة ١١٦/٢ ومعجم الأدباء ١٢٦/١١ وأمل

## أبو الأسود الدؤلي (١)

اسمه ظالم بن عمرو من بنى كنانة ، ولي قضاء البصرة في ولاية عبد الله ابن عباس عليها لعلي بن أبي طالب ، ولما خرج على إلى العراق لزمه في حروبه ، ودخل بعد وفاته فيما دخل فيه الناس من بيعة معاوية ، ولكنه ظل يعلن تشيعة لآل البيت . وهو أول من وضع النقط في المصاحف لتصوير حركات الإعراب . وهو يُعتدّ من وجوه التابعين وفقهائهم ومحدثيهم . وله مدائح وأهاج في معاصريه وأشعار في أزواجه ، ويقال إنه كان بخيلاً شحيحاً ، وهو مع ذلك كان تقيّاً صالحاً ، وله أشعار كثيرة في الزهد من مثل قوله :

وإذا طلبتَ من الحوائج حاجةً فادعُ الإلهَ وأحسنِ الأعمالِ  
فليعطينك ما أراد بقُدرةٍ فهو اللطيف لما أراد فعلاً  
ودع العبادَ ولا تكن بطلابهم لهجاً تضعضُ للعباد سؤالا<sup>(٢)</sup>  
إن العبادَ وشأنهم وأمورهم بيد الإله يقَلبُ الأحوالِ  
وهو في زهده لا يدعو إلى الخمول بل يدعو إلى السعي في الدنيا والمشى في  
مناكبها ، حتى يكسب المرء لنفسه ما يحيا به حياة كريمة ، يقول لابنه :

وما طلبُ المعيشة بالتمنى ولكن ألقِ دَلوكَ في الدلاءِ  
تَجِثْكَ بملثها يوماً ويوماً تجثك بِحَمأةٍ وقليلِ ماءٍ<sup>(٣)</sup>  
ولا تقعد على كسلي تَمَنَّى تحيل على المقادرِ والقضاءِ

على أنباء النحاة ١٣/١ وتاريخ دمشق لابن عساكر ١٠٤/٧ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٦٧ . وله ديوان نشره عبد الكريم الدجيل ببغداد .

(٢) تضعض : تذل وتخضع .

(٣) الحمأة : الطين الأسود .

(١) انظر في ترجمته الأغاني (طبع دار الكتب) ٢٩٧/١٢ والشعر والشعراء ٧٠٧/٢ وأخبار النحويين البصريين ص ١٣ وطبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٥٠ وأسد الغابة ٦٩/٣ والإصابة ٣٠٤/٣ والخزانة ١٣٦/١ وروضات الجنات ص ٣٤١ وطبقات الفراء لابن الجزرى ٣٤٥/١ ومعجم الأدباء ٣٤/١٢ وإنباء الرواة

وكثيراً ما يتحدث عما ينبغي من الربط بين العلم الديني والعمل ، فالعلم إن لم يُقَرَّنْ بالعمل لم يكن علماً ، بل كان لهواً وعبثاً ، بل كان خيانة للعهد ونقضاً ، يقول :

وما عالمٌ لا يقتدى بكلامه بمسوفٍ بميثاقٍ عليه ولا عهدٍ ونراه ساخطاً سخطاً شديداً على من يتعلقون بالدنيا محيطين أنفسهم بمظاهر الرءاء متناسين الشريعة الغراء ، على شاكلة قوله :

قد يجمع المرء ما لا ثم يُحَرِّمُهُ عمَّا قليلٍ فيلقى الذلَّ والحرباً<sup>(١)</sup>  
وجامعُ العلم مغبوطٌ به أبداً ولا يحاذرُ منه الفوتَ والسلبا  
وتوفى أبو الأسود سنة ٦٩ للهجرة ، وقيل بل سنة تسع وتسعين ، والقول الأول هو الصحيح .

### سابق<sup>(٢)</sup> البربري

ليس بين أيدينا أخبار كثيرة عن سابق ، وكل ما نعرف عنه أنه كان قاضي الرقة بالموصل وإمام مسجدتها وأنه كان يفد على عمر بن عبد العزيز يعظه . فهو من وعاظ العصر ، وشعره يفيض تقوى وورعاً ودعوة إلى التقشف والفرار إلى الله من الدنيا ومتاعها الزائل ، ونراه يثور على الأغنياء الذين يعيشون لجمع المال ثورة عنيفة ، يقول :

فحتى متى تلهو بمنزل باطلٍ كأنك فيه ثابتُ الأصل قاطنٌ  
وتجمعُ ما لاتأكل الدهرُ دائباً كأنك في الدنيا لغيرك خازنٌ  
ويقول :

أموالُنا لذوى الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نَبْنِيها  
والنفس تَكَلِّفُ بالدنيا وقد علمتُ أن السلامةَ منها تركُ ما فيها

(١) الحرب : سلب المال . ٣٨/٦ والخزاة ١٦٤/٤ والبيان والتبيين

٢٠٦/١ والمبرد ص ٢٥٣ .

(٢) انظر في سابق تاريخ ابن عساكر .

وكان لا يزال يكثر من حديث الموت ، وأنه نازل عما قريب ، فينبغي لكل إنسان أن يعدَّ العُدَّةَ للرحيل ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من عمل عملاً صالحاً ، ومن قوله في ذلك :

إذا الجسدُ المعمور زابلَ روحه      خوى وجمالُ البيتِ يانفسُ أهلهُ  
وقد كان فيه الروح حيناً يزينه      وما الغنمُ لولا نصلُّه وحمائله  
إذا الأرضُ خفمتْ بعد ثقلِ جبالها      وخلى سبيلَ البحرِيا نفسُ ساحلهُ  
فلا يرتجى عوناً على حملِ وزره      مبيءٌ وأولى الناس بالوزرِ حامله

ونراه يدعو إلى الرضا بقضاء الله ، فلا مَعْدَى عنه ، ولا منصرف إلا إليه ، وأولى بنا أن نصبر وأن لا نجزع ، وهو يردد ذلك في أشعاره على شاكلة قوله :

وإن جاءَ مالا تستطيعان دفعه      فلا تجزعا مما قضى الله واضبراً

ويظهر أنه كان شاعراً مكثراً ، يدل على ذلك قول الجاحظ واصفاً زهدياته : « لو أن شعر سابق البربري كان مفرقاً في أشعار كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما هي عليه بطبقات . . ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسر . ومتى لم يخرج السامع من شيء إلى شيء لم يكن لذلك عنده موقع . »

#### ٤

#### شعراء اللهو والحجون

رأينا في غير هذا الموضع كيف تحضر العرب في هذا العصر . وكيف أن كثيرين منهم أترفوا ترفاً شديداً ، إذ أحاطوا أنفسهم بكل مظاهر النعيم من قصور باذخة ومطاعم وملابس أنيقة ، وجوار ورقيق . ودائماً حين تغرق الأمم في الترف يتورط كثير من أبنائها في آثام مختلفة من اللهو والحجون . وإذا كنا لاحظنا فيما أسلفنا انتشار موجة من الزهد في العصر كان لها آثار عميقة في

الشعر والشعراء فإن هذه الموجة انحسرت عن كثير من الأفراد إذ الناس ليسوا سواسية ، منهم من يجد في الدين ومثاليته الروحية متاعه ، ومنهم من ينحرف عن الدين إلى حياة ماجنة يتهالك فيها على اللهو والخمر .

ومعروف أن الإسلام حرّم الخمر ، وأن عمر شدّد في عقابها حين وجد بعض المسلمين يقترفونها من مثل أبي محجن الثقفي ، وقصة صلاة الوليد بن عقبة وإلى الكوفة لعثمان بالناس وهو سكران مشهورة . غير أن أمثاله وأمثال أبي محجن في عصر الخلفاء الراشدين كانوا قليلين . ونحن لا نخصي في عصر بني أمية ، حتى تظهر آثار الفتوح وما حملت من أموال وحضارات وصور من الترف إلى العرب . فتحضرت مكة والمدينة ، بل أترفتتا ، وتحضر العرب الذين خرجوا في الفتوح واستقروا في البيئات الجديدة ، وأخذ كثير منهم يندفع في الاستمتاع بالحياة . وبالغ نفر في هذا الاستمتاع ، متحرراً من قوانين الدين . وكلما تقدمنا في العصر ازداد ذلك قوة وحدة ، وخاصة في البيئات البعيدة التي رحل إليها العرب ، وظهروا على ما فيها من خمور ، وأقصد بيته خراسان ، حيث كانت تزخر بالخمر وبالطبول والمزامير ، وقد مرّ بنا كيف أن والياً عليها - هو قتيبة بن مسلم - اضطرّ حين وجد نفسي الخمر في جنده أن يعاقب على احتسائها بالقتل .

والحق أنها كانت تنتشر في كل البيئات ، وقد نجد لها في مكة والمدينة حيث كانت تنتشر دور الغناء . ومن الشعراء الذين هلّوا من كثوسها في هذه البيئة أعهد معاوية ابن أرقطاة<sup>(١)</sup> . وعبنا حاول مروان بن الحكم وإلى المدينة أن يردّه عنها . وفيها يقول :

إِنَّا لَنَشْرِبُهَا حَتَّى تَعْمِلَ بِنَا كَمَا تَعْمَلُ وَسَنَانُ بَوَسْنَانِ  
وَمِنْهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ<sup>(٢)</sup> الَّذِي كَانَ يَهَاجِي عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَّانٍ ،  
وفيها يقول :

(١) راجع في ابن أرقطاة الأغانى ( طبع دار  
الكتب ٢٤٢/٣ وما بعدها .  
(٢) انظر في ترجمته أغانى ( دار الكتب )  
٢٥٩/١٣ وراجع المبرد ص ٥٢ والبيان  
والتبين ٣٤٨/٣ .

ترى شاربَيْيها حين يَعتورانها يَميلان أحياناً ويعتدلان  
ومن كانوا يَحْتسِنونها في هذه البيئة لأواخر العصر ابن ميادة<sup>(١)</sup> مادح الوليد  
ابن يزيد بن عبد الملك وندبمه ، وهو من مخضري الدولتين ، وفيها يقول :

ومعتني حُرْمِ الوَقودِ كرامةً كدم الذَّبِيحِ تمجُّهُ أوداجُهُ<sup>(٢)</sup>  
ضمنَ الكرومِ له أوائلَ حَمَلِهِ وعلى الدُّنانِ تمامه ونتاجه<sup>(٣)</sup>  
ومثله ابن هرمة<sup>(٤)</sup> ، وكان مشغولاً بها كلفاً ، وهو القائل :

أَسألُ اللهَ سكرةً قبلَ مَوْتِي وصياحَ الصُّبيانِ يا سَكْرانُ

وإذا تركنا الحجاز إلى العراق وجدنا كثيرين يقبلون على الخمر في غير  
حياء ولا استخفاء ، وكأنما كانت الفتن هناك وما حملتهم من الخطوب باعناً لهم  
على المحجون ، حتى ينسوا به عنائهم ، ومن ثم مضى نفر منهم يعلنُ معاقرة  
لها ، وأنه لن ينصرف عنها ، على شاكلة سُحَّيم<sup>(٥)</sup> بن وثيل الرياحي التميمي ،  
وكان فيه غير قليل من بقايا الجاهلية ، وأكبر الدلالة على ذلك معاقرة غالب  
أبي الفرزدق التي مرت بنا ، والتي مضى فيها ينافسه في نحر إبله لقومه ،  
ويظهر أنه كان يكثر من الشراب كثرة جعلت امرأته حذراً تراجمه وتكثر من  
مراجعته ، فقال :

تقول حذراء ليس فيك سوى الـ خَمْرُ معيبٌ يعيبُهُ أَحَدُ  
فقلت: أخطأتِ بل مُعاقرتي الـ خَمْرَ وبَدَلِ فيها الذي أَجِدُ

(٤) راجع في ترجمته أغاني (دار الكتب)  
٣٦٧/٤ والشعر والشعراء ٧٢٩/٢ والخزافة  
٢٠٣/١ والموشح ص ٢٢٣ .  
(٥) انظر في ترجمته ابن سلام ص ٤٨٩  
والإصابة ١٦٤/٣ والخزافة ١٢٣/١ والشعر  
والشعراء ٦٢٦/٢ .

(١) انظر في ترجمته أغاني (دار الكتب)  
٢٦١/٢ والشعر والشعراء ٧٤٧/٢ والخزافة  
٧٦/١ والبيان والتبيين ٣٤٣/٢ .  
(٢) المعتق : الشراب القديم . حرم الوقود : لم  
يطبخ بالنار . الأوداج : جمع ودج وهو عرق  
في العنق .  
(٣) تمامه : يقصد تمام مدة حمله .

هو الثناء الذى سمعت به لا سبْدٌ مُخلدى ولا لَبْدٌ<sup>(١)</sup>  
ويحك لولا الخمر لم أحمِلِ الـ عيش ولا أن يضمنى لحد<sup>(٢)</sup>  
هى الحيا والحياة واللهو لا أنتِ ولا ثروة ولا ولد  
ويقف السرادق الذهلى هذا الموقف نفسه من ابنته ، فيعلن أنه لن يكف  
عنها ، إذ صارت له غذاء لا يستطيع الصبر عنه<sup>(٣)</sup> . ويلقانا في عهد زياد بن  
أبيه حارثة<sup>(٤)</sup> بن بدر أحد عماله وخلصائه ومدّآحه ، كلفاً بها كلفاً شديداً ، وله  
فيها أشعار كثيرة رواها أبو الفرج في ترجمته يجاهر فيها بأنه لن يكف عنها ،  
مهما أكثر لأموه ، على شاكلة قوله :

يعيبُ على الرَّاحِ من لو يذوقها لجنَّ بها حتى يغيب في القبر  
علامَ تدمُّ الرَّاحَ والرَّاحُ كاسمها تُريح الفتى من همّه آخر الدهر  
فلمّنى فإنّ اللوم فيها يزيدنى غراماً بها إن الملامة قد تُغرى  
وكان يذهب مذهبه في الإدمان عليها مالك بن أسماء صهر الحجاج الثقفى  
وواليه على أصبهان ، وله فيها أشعار ساقها أبو الفرج في ترجمته<sup>(٥)</sup> . ولعل  
عراقياً لم يشتهر بها كما اشتهر الأقيشر<sup>(٦)</sup> الأسدى وكان كوفياً خليعاً ماجناً ،  
وفيها يقول :

أفنى تِلادى وما جمعتُ من نَشْبِ قرعُ القواقيزِ أفواه الأباريق<sup>(٧)</sup>  
ويقول :

كُميتُ إذا فُضتُ فى الكأسِ وردةٌ لها فى عظام الشاربين دبيبُ

(١) لا سبْد ولا لبْد : مثل أى لا قليل ولا كثير .

(٢) اللحد : شق للبيت فى جانب القبر .

(٣) الشعر والشراء ٢/٦٧٠ .

(٤) انظر ترجمته فى الأغاني ( طبع الساسى )

١٣/٢١ وأمالى المرتضى ١/٣٨٠ وما بعدها

وراجع فهارس الكامل للمبرد والبيان والتبيين

والطبرى .

(٥) انظر ترجمته فى الأغاني ( ساسى )

٤٠/١٦ والخزافه ٢/٤٨٥ ومعجم الشعراء

ص ٢٦٦ والموشح ص ٢٢٠ والشعر والشعراء  
٧٥٦/٢ .

(٦) انظر فى ترجمة الأقيشر أغاني ( دار الكتب )

٢٥١/١١ والشعر والشعراء ٢/٥٤١ ومعجم

الشعراء ص ٢٧٣ والخزافه ٢/٢٧٩ والموشح

ص ٢٢١ .

(٧) التلاد : المال القديم . النشب : العقار

والضياح . القواقيز : الكنوس وأواني الخمر التى

تشرّب فيها .

وإذا مضينا إلى خراسان وسجستان وجدنا كثيرين يتورطون فيها ، وكأنما كان تغلغلهم في الشرق دافعاً لهم إلى الإمعان في المحون والتحرر من قوانين الدين ، أو لعلهم كانوا يريدون أن يزيحوا بها عن كواهلهم ما كانوا يحسون به من آلام الغربة وعناء الحروب. ويروى البلاذري أن ثلاثة نفر من أهل الكوفة كانوا في جيش الحجاج الذي وجهه إلى الديلم، وكانوا يتنادمون ، فأت أحدهم ، فدفنه صاحبه ، ومضيا يشربان عند قبره ، فإذا بلغته الكأس أراقاها على القبر ، وبكيا . ومات الثاني فدفنه صاحبه ، وظل عند قبرهما يشرب ويبكى إلى أن لحق بهما ، وقبورهم هناك تعرف بقبور الندماء<sup>(١)</sup>. ومن الشعراء الذين اشتهروا بمعاقرتها والنظم فيها هناك الشَّـرْدَلُ<sup>(٢)</sup> بن شريك، وكان قد خرج للغزو في تلك الديار مع ثلاثة من إخوته . فاتوا جميعاً ورثاهم رثاء حاراً ، وكأنه كان يغرق فيها حزنه . ومنهم أبو جليدة اليشكري الذي سبق أن عرضنا له في شعراء ثورة ابن الأشعث ، وكان يُدَمِّمُها إدماناً ثم تاب عنها ، فقال<sup>(٣)</sup> :

سَأرَا سُنُفِي التَّقْوَى فِي الْعِلْمِ بَعْدَمَا رَكضْتُ إِلَى أَمْرِ الْغَوِيِّ الْمَشْهُرِّ

ونحن لا نصل إلى أواخر هذا العصر حتى تشتد موجة المحون في خراسان والعراق جميعاً ، وخاصة الكوفة ، حيث تنشأ جماعة كبيرة من المجان على رأسها مطيع وحماد الراوية وحماد عَجْرَدٌ ويحيى بن زياد، وهم جميعاً ممن عاشوا في الدولتين الأموية والعباسية، وهم من هذه الناحية أكثر صلة بالعصر العباسي منهم بالعصر الأموي ، ولذلك رأينا أن نؤخر الحديث عنهم . على أنهم يلفتوننا في قوة إلى تهالك الناس على المحون في الكوفة في أواخر العصر ، تهالكاً تحرروا فيه من كل خلق وعرف ودين . ولعل مما هياً لهذا الانحلال الخلق على الأقل عند بعض الأفراد في هذا العصر أن بعض خلفاء بني أمية المتأخرين جعلوا يقبلون على اللهو ، يتقدمهم في ذلك يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد الذي أكبَّ على الخمر والمجون إكباباً ، كما أكبَّ على نظم الحمريات وهو وأبو الهندي شاعر سجستان أهم من عاشوا هذه الحياة الماجنة .

٣٥١/١٣ وما بعدها والشعر والشعراء ٢/ ٦٨٥

(١) فتوح البلدان ص ٣٢٠ .

(٢) أغاني (دار الكتب) ١١/ ٣٣٠ .

(٣) انظر ترجمته في أغاني (دار الكتب) .

الوليد<sup>(١)</sup> بن يزيد

وُلد لأبيه يزيد بن عبد الملك في سنة ٨٨ للهجرة ، ففتحت عينه على النعيم والترف ، بل على اللهو والمجون ، إذ كان أبوه كلفاً بالخمير والغناء ، حتى في خلافته ، إذ كان يستقدم مغنيّ مكة والمدينة ومغنيّاتهما ، واشترى سلامة القس وحبّابة ، وانصرف عن شئون الدولة إليهما وإلى الغناء والطرب والقصّف . وقد نشأ ابنه الوليد على مثاله ، بل لقد أخذ يسرف في المجون واللهو إسرافاً شديداً ، حتى فكر هشام بن عبد الملك الذي خلف أباه أن يصرف ولاية العهد عنه لفساد خلقه ، ولكنه توفّي سنة ١٢٥ قبل أن يحقق فكرته . واستوى الوليد على عرش الخلافة ، فإذا هو يحوّل قصره ببادية شرق الأردن مقصفاً كبيراً للخمير والعزف والغناء ، إذ لم يترك مغنياً في مكة والمدينة دون أن يستقدمه ، وأخذ يعبّ من كتوس المجون عبّاً ، جعل أهله يتنكرون له ، ويقتله ابن عمه يزيد بن الوليد في جمادى الآخرة سنة ١٢٦ توارزه البمانية ثاراً لخالد القسري وما كان من تعذيبه له وقتله .

وعلى هذا النحو يذهب ضحية مجونه ، وبما لا شك فيه أنه كان ماجناً يعكف على الخمر والغناء ، ويعيش للهو والصيد والقنص ، حتى بعد خلافته ، فقد ظل في نفس الجو الماجن ، الذي كان يتنفسه قبل اعتلائه عرش الخلافة . ومن ثم آثر قصره ببادية شرق الأردن على دمشق مستقر الخلافة الأموية ، ومضى يجلب إليه المغنين والمغنيات وآلات اللهو والطرب لا من الحجاز فقط ، بل أيضاً من خراسان ، فقد أسلفنا في غير هذا الموضع أنه كلّف نصر بن سيار أن يبعث إليه بما في ولايته الخراسانية من الخيل والبراذين الفارحة وآلات الصيد ، ومن أباريق الذهب والفضة وتماثيل السباع والظباء ، ومن البرابط والطنابير والوصيفات والصنّاجات ، فجمع له نصر من ذلك أشياء

٣١٨ وحديث الأربعاء ١٦٩/١ وقد نشر ديوانه في مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق .

(١) انظر في ترجمة الوليد أغاني (دار الكتب) ١/٧ وما بعدها والطارقي في سنتي ١٢٥ و ١٢٦ وكتابتنا انظور والتجديد في الشعر الأموي من

كثيرة ، كانت موضع التندر بين الشعراء والأثقياء .

وينبغي أن لا ننسى مع الرواة في كل ما تحدثوا به عن مجونه ، إذ نراهم يجعلونه مانويًا زنديقًا ، يسخر بالقرآن الكريم بل يمزقه تمزيقاً<sup>(١)</sup> . وفي الوقت نفسه تذكر بعض الروايات أنه قُتل وهو يقرأ القرآن ويقول : يوم كيوم عثمان<sup>(٢)</sup> . وفي الحق أن أبناء عمه من الأمويين كانوا أول من بالغ في وصفه بالمجون ، ثم جاء العباسيون بعدهم ، فاستغلوه في التشنيع على خلفاء بني أمية ، وأنهم انزلوا إلى الدرك الأسفل من انتهاك ما حرّم الله ومن شرب الخمر وإتيان الفسق ، بل الكثر جملة والخروج من حدود الدين . ونحن مع تنحيتنا لهذه المبالغات التي لعبت فيها السياسة دوراً كبيراً نحتفظ للوليد بمجونه وعكوفه على اللهو والصيد والقنص وإدمانه للخمر ولوجه بالغناء لهجاً مسرفاً .

وكان الوليد شاعراً مبدعاً ، فأنفق شعره في الخمر ، وله أشعار في الغزل والحب ، ولكنها دون أشعار الخمر في الإبداع والروعة ، ويظهر أنه تقف كل ما نُظِم فيها قديماً ، وخاصة عند عدى<sup>(٣)</sup> بن زيد العبادي ، وقد مضى ينميه ويضيف إليه من مواهبه ومشاعره وملكاته ما أتاح لفن الحمريات أن يأخذ طريقه إلى الظهور ، إذ لم تعد أشعار الخمر عنده توضع في ثنايا قصيدة أو في مقدمتها كما كان الشأن عند عدى وعند الأعشى ، بل أصبحت تُنظَّم في مقطوعات ، لها وحدتها الموضوعية والمعنوية ، تنبض بالحياة وتخفق بالخلد والسرور ، لسبب طبيعي ، هو أن ناظمها عاشق للخمر ، وهو ينظمها في غمرة عشقه ، وكأنما تفجّر له ينابيع الفرح تفجيراً . وأقرأ له هذه الحميرية :

أصدغ نجى الهموم بالطرب      وأنعم على الدهر بابنة العنب  
واستقبل العيش في غضارته      لا تقف منه آثار معتقب  
من قهوة زانها تقادُمها      فهى عجوز تعلق على الحقب

(١) راجع الأغاني ٤٦/٧ وما بعدها ، ٧٢/٧ .

(٢) انظر الأغاني ٦٥/٧ .

(٣) انظر الطبري ٥٥١/٥ .

أشهى إلى الشرب يومَ جَلوتها      من الفتاةِ الكريمةِ النَّسبِ  
فقد تجلَّت ورقٌ جَوهرُها      حتى تبدَّت في منظرٍ عجبِ  
كانها في زجاجها قَبَسٌ      تذكو ضياءً في عَيْنِ مُرتقبِ

فهى فرحة الحياة ونعيمها، بل هى قبس سماوى يهبط برداً وسلاماً على قلوب  
المحزونين ، فيزيل ما فيها من أحزان وهموم ، ويردها إلى نشوة الفرح والمسرة .  
واقراً أيضاً هذه الحمزية :

علَّاني      واسقياني      من شرابٍ أصبها في  
من شراب الشيخ كِسرى      أو شرابِ القَيروانِ  
إن في الكأسِ لِمسكا      أو بكفى مَنْ سقاني  
أو لقد غُوِدِرَ فيها      حين صُبَّت في الدَّنانِ  
كلَّاني      تَوَجَّاني      وبِشغري غنياني  
إنما الكأسُ ربيعٌ      يُتعاطى بالبَنانِ  
وحُمياً الكأسُ دَبَّتْ      بين رِجْلي ولساني

وهى تجرى أيضاً في نطاق الفرحة العميقة بالخمير ، بل لعلها أقوى  
من سابقها تعبيراً عن فرحته بها ، فهى فى رأيه عطر الوجود بل ربيعها ، وهو يتلظى  
بنشوتها التى تسرى فى جسده من فرَّعه إلى قدمه . وهو بحق يُعَدُّ رائد العباسيين  
من أمثال أبى نواس فى هذا الفن من فنون الشعر ، ولاحظ ذلك النقاد قديماً  
فقال أبو الفرج : « وللوليد فى ذكر الخمر وصفها أشعار كثيرة ، قد أخذها  
الشعراء فأدخلوها فى أشعارهم ، وسلخوا معانيها ، وأبو نواس خاصة ، فإنه  
سلخ معانيه كلها وجعلها فى شعره » .

ولم تستم الحمزية عنده وحدتها الموضوعية والمعنوية وهذا الحب الذى  
يجعلها كاللهب المتدلح فحسب ، فإنها استتمت عنده أيضاً التفاعل الحميم  
بين المعانى والألفاظ ، بل بين المعانى والإيقاعات إذ كان عازفاً محسناً ،  
يحسن اللب على أوتار العيذان والتوقيع على الطبول والدقوف ، وله أصوات

مأثورة في بعض أشعاره<sup>(١)</sup> . ومن ثمّ اجتمع للخمرية عنده طرافة المعنى وحلاوة النغم ، وقد مضى يؤثر الأوزان الخفيفة والمجزوءة من مثل التهجيز والرّمْل ، بل لقد هداه ذوقه الموسيقي إلى اكتشاف وزن المَجْتَم ، فكان أول من نظم فيه<sup>(٢)</sup> . وإذا صححت الخطبة الشعرية التي يقال إنه خطب بها في يوم الجمعة - وهي موعظة<sup>(٣)</sup> طويلة - كان أول من أعدّ لصورة المزدوجات التي شاعت بين أصحاب الشعر التعليمي في العصر العباسي

### أبو الهندي<sup>(٤)</sup>

هو غالب بن عبد القدوس بن شيبث بن رُبَعَى الرياحي النخعي ، وقيل اسمه عبد الله وقيل بل عبد المؤمن ، أدرك دولة بني العباس ومات في خلافة المنصور . وكان رحل إلى خراسان واستوطن في أواخر عمره سجستان ، واشتهر منذ مطالع حياته بالفسق وفساد الأخلاق ومعاقرته الشراب . ويقال إنه كان بخراسان يشرب على قارعة الطريق ، فرّ به نصر بن سيار واليها للأمويين ، فقال له : ويحك يا أبا الهندي ألا تصون نفسك ؟ قال : لو صُنْتُهَا لما وليت أنت خراسان . ولما انتقل إلى سجستان نزل بموضع يقال له بالفارسية : « كوى زيان » وتفسيره بالعربية سكة الخمران . كانت تباع فيه الخمر وتُتَقَرَفُ الفواحش .

وكان شاعراً بارعاً ، وقد وهب شعره جميعه للخمر ، وهو من هذه الناحية يعد متمعماً للوليد بن يزيد ، إذ دفع معه الشعر العربي إلى تمثل الخمرية بكل شيائتها المعنوية والموسيقية ، وشهد له بذلك غير ناقد ، حتى لئرى إسحق الموصلي يقول إن معاني أبي نواس وطبقته في الخمر مستمدة من أشعاره فيها ، ويقول ابن المعتز : « كان جماعة مثل أبي نواس والخلّيع وأبي هفّان وطبقهم إنما اقتلروا على وصف الخمر بما رأوا من شعر أبي الهندي وبما استنبطوا من معانيه » . وله في مداومة سكره وعدم إفاقتة منه قصة تشبه قصة أبي نواس مع والبة . إذ يقال إنه

(١) الأغانى ٢٧٤/٩ و ٣٢٢/٧ ، ٤٤ . (٤) انظر في ترجمته أغانى (ساسى) ١٧٧/٢١ .

(٢) انظر كتابنا الفن ومذاهبه في الشعر العربي والشعر والشعراء ٦٦٣/٢ وطبقات الشعراء لابن

(ضج دار المعارف) ص ٥٩ . المعتز (طبع دار المعارف) ص ١٣٦ .

(٣) الأغانى ٥٧/٧ .

شرب عند خممار ونام ، ودخل جماعة فسألوا عنه ، فعرفوا خبره ، فشربوا وناموا  
وانتبه ، فرآهم ، فسأل عنهم ، فعرف أنهم مصرعون من الخمر ، فشرب ،  
حتى سكر ونام ، وانتبهوا فصنعوا صنيعه ، وأقاموا جميعاً كذلك عشرة أيام ،  
يفيقون ثم يشربون وينامون ، وروى قصته معهم في بعض شعره . إنه يعيش  
للخمر ويعيش بالخمر ، يصف سُقَاتَهَا وِدَانَهَا وَأَبَارِيقَهَا وَزِقَاقَهَا مثل قوله :

يَجُّ سُلَافًا مِنْ زِقَاقِ كَأَنهَا شِيُوخُ بَنِي حَامٍ تَحَنَّتْ ظَهْوَرَهَا  
وقوله :

وَإِذَا صُبَّتْ لَشَرْبِ خِلْتَهَا حَبَشِيًّا قُطِعَتْ مِنْهُ الرُّكْبُ  
ونراه يصف القيان اللأئي يسمعهن في أثناء شربها ، كما يصف من تصرعهم  
وصفاً فيه براعة ، فقد أخلص لها نفسه ، ووجد فيها طمأنينته ، بل فرحته ومسرته  
حتى ليتنى أن يضمها إلى صدره في قبره ، فلا تزيله حياً ولا ميتاً ، يقول :

اجعلوا - إن مت يوماً - كَفْنِي وَرَقَ الْكَرِّمْ وَقَبْرِي مَعَصْرَةَ  
وَادْفِنُونِي وَادْفِنُوا السَّرَّاحَ مَعِي واجعلوا الأقداحَ حول المَقْبِرَةِ

وعلى هذا النحو مضى أبو الهندي في سكة الخسران إلى الأنفاس الأخيرة  
من حياته ، يصدحُ بخمرياتة ، ويتخذ الخمر وحى إلهامه .

## ٥

## شعراء الطبيعة

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الطبيعة دائماً كانت ملهماً بالغ التأثير في نفسية  
الشاعر العربي ، وقد مضى أسلافه في الجاهلية يصدرون عنها في أشعارهم ، فلم  
يتروا كبيرة ولا صغيرة في صمتها ولا في حركتها دون أن يرسموها في أشعارهم ، فهم  
يصورون قلوأتها بكشبانها ورمالها وغدبانها وغبيثها وسيولها وخصبها وجمدبها  
ونباتاتها وأشجارها وحيوانها وطيرها وزواحفها وهواجرها وما قد يتزل ببعض  
مرتفعاتها وأطرافها من البرد وقوارصه .

ومضى شعراء العصر الأموي - على سُنَّة آبائهم - يستلهمون صحراءهم ، مزاجين على شاكلتهم بين حب الطبيعة وحب المرأة ، إذ يفتتح الشاعر غالباً مطولاته بوصف أطلال الديار التي قضى بها شبابه مع بعض صواحيبه ، ويسترسل في الحديث عن ذكريات حبه . ولا يلبث أن يتحدث عن رحلته في الصحراء ، وما قطع فيها من مفاوز على ناقته التي يُسهب في وصفها لما لها من جمال في نفسه ، كما يُسهب في وصف فرسه إن كان فارساً ، وهو في ثنايا ذلك يحدِّثنا عن كل ما تقع عليه عينه في صحرائه ويخلف أثراً في ذهنه من طير وحيوان في الأرض ونجوم وكواكب في السماء .

وعلى الرغم من أن جمهور الشعراء لهذا العصر عاش في بيئات متحضرة ، فإن الصحراء لم تجفّ بنايبيها في نفوسهم ، بل لقد ظلت ملهمهم الأول في أشعارهم ، على نحو ما نجد عند ميرزبهم من أمثال الفرزدق والأخطل وجريير ، ومن خير ما بصور ذلك أبيات للفرزدق يوازن فيها بين طبيعة الصحراء ونُهَيْسِر دُجَيْل وما يجرى فيه من سفن ، موازنة يُعنى فيها الطبيعة الأولى علواً كبيراً ، يقول (١) :

لَفَدَجٌ وَصَحْرَاوَاهُ لَوْ سَرْتُ فِيهِمَا	أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ دُجَيْلٍ وَأَفْضَلُ (٢)
وَرَاخِلَةٌ قَدْ عَوَّدَتْنِي رُكُوبَهَا	وَمَا كُنْتُ رَكَّابًا لَهَا حِينَ تُرْحَلُ (٣)
قَوَائِمُهَا أَيْدِي الرِّجَالِ إِذَا انْتَحَتْ	وَتَحْمَلُ مَنْ فِيهَا قُعُودًا وَتَحْمَلُ (٤)
إِذَا مَا تَلَقَّتْهَا الْأَوَادِي شَقَّهَا	لَهَا جُوجُوجٌ لَا يَسْتَرِيحُ وَكَلْكَلُ (٥)
إِذَا رَفَعُوا فِيهَا الشُّرَاعَ كَأَنَّهَا	قَلُوصُ نَعَامٍ أَوْ ظَلِيمٌ شَمَرْدَلُ (٦)

وواضح أنه يُؤثر الطبيعة الصحراوية البدوية على طبيعة البيئات الجديدة وما فيها من أنهار وسفن تحمل الناس في رحلات نهريّة ممتعة . وهو يعبر بذلك

(١) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوي) ص ٦٢٦ .  
 (٢) فلج : راد من أودية تميم بين البصرة وحصى ضربة . ودجيل : من أنهار دجلة .  
 (٣) ترحل : تهباً للرحيل .  
 (٤) القوائم هنا : المهاذيف بأيدي الملاحين .  
 (٥) الأواذي : الأمواج . الجوجوز : بطن السفينة من أمام ، الكلكل : الصدر .  
 (٦) قلوص النعام : طويلة القوائم ، الظلم : ذكر النعام ، الشمردل : الطويل تام الخلق .

عن شعوره وشعور مَنْ حوله من الشعراء الذين فُتِنُوا مثله بالصحراء ومناظرها الطبيعية أمثال ذى الرُّمَّة، وسنعرض له عما قليل . وكان يعاصره العَجَّاج وغيره من الرِّجَّاز . أمثال رُوْبَةَ الذى يقول (١) :

إِن الرُّدَاقِ وَالكَرَىِّ الأَرْقَبَا      يكفيك دَرَّةَ الفَيْلِ حَتَّى تَرَكِبَا<sup>(٢)</sup>  
فهو يفضل ركوب الإبل على ركوب الفيل الذى يحتاج إلى الدفع قبل  
اعتلائه .

وليس معنى ذلك أن الشاعر الأموى لم يَفْسَحْ لطبيعة البيئات الجديدة فى شعره ، إنما معناه أن الطبيعة الصحراوية هى التى كانت تستولى على ملكاته ، أما بعد ذلك فقد كانت تنفذ طبيعة الأقاليم الجديدة إلى حواسه ، فيصور ما يراه بها من جبال وثلوج . وقد صور الفرزدق نفسه فى بعض رحلاته إلى دمشق ما كان ينزل عليه وعلى صحبه فى طريقه شتاءً من نثير الثلج ، يقول (٣) :

مستقبلين شِمَالَ الشَّامِ تَضْرِبُهُم      بحاصِبِ كَنْدِيفِ القُطْنِ مَنْشُورِ<sup>(٤)</sup>  
على عَمَائِمِنَا يُلْقَى ، وَأَرْحَلُنَا      على زواحفَ نُزْجِيهَا محاسيرِ<sup>(٥)</sup>  
وكان جرير على شاكلته لا يزال يبدئ ويعيد فى وصف المناظر الصحراوية ومع ذلك تلقانا فى ديوانه قطعة صور فيها نُهَيِّرات شَقَّهَا هِشَامُ بن عبد الملك من نهر الفرات ، وخاصة نهر الهنء ، وما نبت على ضفافها من زرع وزيتون وأعناب ونخيل ومن كل الثمرات ، وهى تطَّرد على هذا النمط (٦) :

شَقَّقْتَ مِنَ الفُرَاتِ مِبارِكَاتٍ      جِوَارَى قَدْ بَلَغْنَ كَمَا تَرِيدُ  
وَسَخَّرْتَ الجِبَالَ وَكُنَّ خُرُسًا      يَقَطِّعُ فى مَنَاكِبِهَا الحَدِيدُ

(١) الحيوان ٩٠/٧ .  
(٢) الردافى : الهادى . الكرى : الذى يكرى دابته ويؤجرها . والأرقب : غليظ الرقبة .  
درة الفيل : دفعه وكفه .  
(٣) الديوان ص ٢٦٢ .  
(٤) شمال الشام : ريح شمالية . الحاصب : ما تحمله الريح من دقاق التراب أو الثلج .  
النديف : نثير الثلج والبرد .  
(٥) نزجيا : نسوقها ونُدفعها ، محاسير : كليلة .  
(٦) ديوان جرير (طبعة الصاوى) ص ١٥٠ .

بلغت من الهنئىء فقلت شكراً هناك ، وسهل الجبل الصلود<sup>(١)</sup>  
 بها الزيتون فى غللى ومالت عناقيد الكروم فهن سود<sup>(٢)</sup>  
 فتمت فى الهنئىء جنان دنيا فقال الحاسدون هى الخلود  
 يعضون الأنامل أن رأوها بساتيناً يؤازرها الحصيد<sup>(٣)</sup>  
 ومن أزواج فاكهة ونخل يكون لحمه طلع نصيد<sup>(٤)</sup>

وحرير يحدثنا عن شق الطرق للنهيرات فى الجبال وتحطيم ما يعترض من  
 الصخور ، كما يحدثنا عن المناظر الطبيعية فى تلك البيئة وما حف بها من  
 أشجار فاكهة وغير فاكهة وزروع مختلفة .

فالشاعر الأموى مع استفراق مناظر الصحراء له لم يغمض عينيه عن مناظر  
 البيئات الحديدية ، فقد كان يسجلها من حين إلى حين ، وخاصة منهم من  
 كانوا يلهجون بالصيد وكلابه وصقوره وفهوده ، وسنعرض لذلك فى حديثنا عن  
 الرُّجَّاز ، وقد تعرضت طائفة منهم لوصف الفيل ، على شاكلة قول رؤبة  
 يصفه<sup>(٥)</sup> :

أجرّد كالحصن طويل النابئ مشرف اللحي صغير الفقمين<sup>(٦)</sup>  
 عليه أذنان كفضل الثوبين

واشتهر فى هذا المجال هرون مولى الأزدي<sup>(٧)</sup> . فالطبيعة الحديدية المتحركة  
 والصامتة أهمتهم كثيراً من الشعر والرجز ، ولكن من الحق أن بيئتهم الصحراوية  
 كانت ملهمهم الأول فى هذا العصر .

(٤) الطلع : ثمر النخل فى إبانة نصيد : منتظم .

(٥) الحيوان ٧٩/٧ .

(٦) الفقمان : اللحيان .

(٧) الحيوان ١١٤/٧ وما بعدها .

(١) الصلود : اليايس .

(٢) الفلل : الماء الجارى تحت الشجر على

وجه الأرض . الكروم : الأعتاب .

(٣) الحصيد : الزروع التى تحصد ثمارها

كالقح .

## خو الرُّمَّة (١)

هو غَيْلَان بن عقبة من بني عدي بن عبْد مَنَاة ، لُقِّبَ بذى الرمة لقوله في بعض شعره يصف الوتدَ : « أشعث باقِ رُمَّة التقليد » والرُّمَّة : القطعة البالية من الحَبْل ، وأضيفت إلى التقليد لأن الوتد يتقلد بها . وقيل : لُقِّبَ بذى الرمة لأنه كان - وهو غلام - يتفزع ، فأنت به أمه مقرئ قبيلته ، فكتب له معاذة في جلد غليظ ، وعلقتها أمه على يساره برُمَّة من حبل فسمي ذا الرمة . وقيل إن مية التي شغفت قلبه حباً هي التي لقبته بذلك حين ألمَّ بحبائها وطلب منها أن تسقيه ماء ، وكان على كتفه رمة ، فلما أتته بالماء ، وكانت لاتعرفه ، قالت له : اشرب يا ذا الرمة . وقد وُلد بصحراء الدهناء بالقرب من بادية اليمامة ، لأم من بني أسد تسمى ظبية . وكان له ثلاثة إخوة كلهم شعراء . هم مسعود وأوفى وهشام ، وفي بعض الروايات أن أوفى ابن عمه ، أما أخوه الثالث فاسمه جرفاس . وقد ولد حوالي عام ٧٧ للهجرة . وتلقن الكتابة ، وليس بين أيدينا أخبار كثيرة عن نشأته الأولى ، ونراه ينظم الشعر في خلاف نشب بين قبيلته وعتيبة بن طرثوث بسبب بئر كانت لقومه ، ومن ثم مضى يمدح المهاجر بن عبد الله وإلى اليمامة مثنياً على حكومته العادلة في هذا الخلاف . ومن أخباره المتصلة بقبيلته أيضاً أنه نزل مع نفر منها على عشيرة امرئ القيس بن عبد مَنَاة . فلم يكروهم ، فانطلق يهجوهم ، وكان ذلك سبباً في اصطدامه بشاعرهم المسمى هشاماً المرثي ، ولم يستطع هشام أن يثبت له لضعف شاعريته ، على الرغم مما أمده به جرير من بعض الأشعار .

وتدل أخباره على أنه كان يتزل الكوفة والبصرة - ويظيل النزول فيهما - منذ مطلع القرن الثاني للهجرة مادحاً رجالهما ، وأول ما نستقبله من ذلك مديحه

والبيان والتبيين والحيوان والكمال للمبرد وأمال  
المرثضي، وكتابتنا « التطور والتجديد في الشعر  
الأموي » ص ٢٦٥ وقد نشر مكارني ديوانه  
في كبريدج سنة ١٩١٩

(١) انظر في ذى الرمة ابن سلام ص ٤٦٥  
وما بعدها والشعر والشعراء ٥٠٦/١ وأغاني  
(ساسي) ١٠٦/١٦ وابن خلكان في غيلان  
والموشح للمزياني ص ١٧٠ والخزافة ٥٠/١  
ومرآة الجنان لليانعي ٢٥٣/١ وفهارس الأغاني

لهلال بين أحوز المازني في انتصاراته على المهالبة سنة ١٠٢ وقضائه على من بق منهم بعد معارك مسلمة بن عبد الملك قضاء مبرماً . وقد مدح عبد الملك بن بشر بن مروان نائب مسلمة على البصرة . وتولّى على العراق في سنة ١٠٣ عمر بن هبيرة الفزاري فاتصل به ومدحه ، حتى إذا خلفه خالد القسري منذ سنة ١٠٥ رأيناه يمدح نوابه ومن ولاهم الشرطة والأحكام ، وعلى رأسهم نائبه أبان بن الوليد البجلي ، ومالك بن المنذر بن الجارود صاحب شرطته . وأهم من مدحهم بلال ابن أبي بردة الأشعري الذي ولي شئون الشرطة لخالد في البصرة سنة ١٠٩ ، ثم ولي منذ سنة ١١٠ أمور البصرة كلها : القضاء والصلاة والأحداث ، وظل يليها إلى أن توفي الشاعر . وقد امتدت رحلاته في طلب النوال إلى دمشق وخاصة في عهد هشام بن عبد الملك ، فله فيه غير قصيدة ، كما امتدت إلى مكة حيث مدح واليها إبراهيم بن هشام المخزومي ، ولما ولي فارس أبان بن الوليد قصده ومدحه . وقد هجا في بعض شعره حكيم بن عياش الكلبي الكوفي الذي كان يتعصب لليمن تعصباً مسرفاً .

والعناصر الإسلامية واضحة في شعر ذي الرمة ، فهو يمدح بالتقوى ويهجو بالفضلال ، ودائماً يذكر في رحلاته الصحراوية التيمم والقصر في الصلاة وتلاوة آي الذكر الحكيم ، ويظهر أنه كان كثير الاختلاف إلى مجالس الوعظ والمتكلمين في عصره ، حتى لراه يعتقد مذهب القدرية في العدل على الله جل جلاله وفي حرية الإرادة ، ويناقش رؤبة في ذلك ويعلو عليه في نقاشه<sup>(١)</sup> ، وبما صدر فيه عن مذهبه قوله في الغزل :

وعَيْنَانِ قَالَ اللَّهُ كَيْنَا فَكَانَتَا فَعَوْلَانِ بِالْأَلْبَابِ مَا تَفْعَلُ الْخَمْرُ

وقد تعرض له بعض من سمعوه ينشده ، يقول : هلا قلت : فعولين ، وكأنه لم يلتفت إلى أنه يتحرز بذلك من القول بخلاف العدل وأن عمل الإنسان وعمل جوارحه بإرادته . ويجمع معاصروه على أن كان ذكياً ذكاءً حاداً وأنه كان كثرأً من كنوز الفطنة وذخايرها الدقيقة ، كما كان كثرأً من كنوز العلم بالشعر القديم واللغة ، وقد شُغف بشعر الراعي ، حتى قالوا إنه كان راويته

ولعله هو الذى ألهمه عنايته بالصحراء ووصف مناظرها الطبيعية ، وقد مضى  
بتغناها إلى أن دُفن في أحضانها سنة ١١٧ للهجرة .

وذو الرمة يتخلف في المديح والهجاء جميعاً عن فحول عصره أمثال الفرزدق  
وجرير ، وكان الطبيعة وما اقترن بها من حبه لم يُبقيا فيه بقية . ومُلهمته الأولى  
في الديوان مَيَّة بنت طُلُبَّة بن قيس بن عاصم ، فقد رآها في بعض رحلاته . فشغفت  
قلبه حباً ، وظل يتغنى باسمها وحبها في كل مكان . وفي الديوان أخرى تسمى  
خرقاء ، ولعله كان يكنى بها عن مية ، وإن كان من الرواة من زعم أنها امرأة  
أخرى . وحبُّ ذى الرمة حب عفيف كله أئين وزفات ودموع وحزين بالغ  
من مثل قوله :

وقفتُ على رَبْعِ لَمِيَّةِ نَاقِي      فمَازَلْتُ أبكى عنده وأُخاطبه  
وأُسْقِيه حَتَّى كَادَ مِمَّا أبُثُّهُ      تَكَلَّمَنِي أَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهُ (١)

وقوله :

وَحِبُّهَا لِي سَوَادَ اللَّيْلِ مَرْتَعِدًا      كَأَنَّهَا النَّارُ تَخْبِوْثُم تَلْتَهَبُ

وقوله :

أَدَارًا بِحُرُورِي هِجَّتِ لِلْعَيْنِ عِبْرَةٌ      فَمَاءُ الْهَوَى يَرْفُضُ أَوْ يَتَرَقُّ (٢)

وقوله :

أَجَلُ عِبْرَةٍ كَادَتْ لِعُرْفَانَ مَنزِلِ      لَمِيَّةِ لَوْ لَمْ تُسَهِّلِ الْمَاءُ تَذْبِحُ

ولعل شاعراً عربياً لم يكثر من وصف دموعه كما أكثر ذو الرمة ، وعبثاً  
كان يظنُّ بها نيران الحب المتدلعة في قلبه لمية ، وقد مضى يتعزَّى عنها بمحراجها  
الذى كانت تعيش فيه ، فإذا هو أكبر شاعر يتغنى بالصحراء العربية ، وحقاً  
كان الشعراء قبله وحوله يصفونها . ولكنه امتاز منهم بأنه عشقها ، عشق أيامها  
وليلاتها ورمالها وكتبانها وآجامها وأعشابها وأشجارها وحيوانها الأليف والوحشى

(١) يسيل . يترقق : يسكن في العين جائلاً .

(١) أسقيه : أدعوه بالسقيا .

(٢) حزوى : موضع بديار نهم . يرفض :

وكل ما يُطَوَى فيها من آبار وسمام و سراب و طير و رباح و كل ما يلعب في سمائها من كواكب و نجوم و سحب و غيوم .

و كأنما وجد ذو الرمة عشقه الحقيقي في الصحراء ، فإذا هو ينقل مناظرها إلى شعره في لوحات رائعة ، وارجع إلى القصيدة الأولى في ديوانه التي يفتتحها بوصف دموعه التي تسيل دائماً ولا تفر ، إذ يقول :

ما بال عينك منها الماء ينسكبُ

كأنه من كُلى مَفْرِيةٍ سَرَبُ (١)

فإنك ستره يخلص محبوبته بنحو عشرين بيتاً ، ثم يمضي في نحو مائة بيت يصور ثلاثة مشاهد رائعة من مشاهد الصحراء التي كانت تبهج نفسه ، أولها مشهد أتن الوحش و حمارها ، وهو يقودها في يوم حار إلى ماء بعيد ، تصل إليه ، و تهوى عليه تريد أن تشفى غلَّتْها ، فيتعرض لها صائد مخنف وراء الأشجار بسهامه ، فتفر على وجهها ، و تطيش سهامه ، و دائماً تطيش هذه السهام في شعر ذى الرمة حباً للحيوان . و المشهد الثاني مشهد ثور الوحش في كِناسه مكتنأ من المطر ، و قد ترامت حوله حنادس الليل و سواحه ، و تنقلت أضواء الصباح فيخرج من كِناسه للرعى و إذا بصائد قد أرسل عليه كلابه ، فيمزقها إرباً ، و ينكشف عنه همه و روعه . و المشهد الثالث مشهد الظليم و صاحبه يرعيان بعيداً عن أفراخهما ، و يكفهر الجو ، فيسرعان إليها خيفة أن يسقط عليها برَدُ السماء أو بعض السباع . و ذو الرمة في المشاهد الثلاثة يشبه الرسامين الذين يمشدون في لوحاتهم جميع الجزئيات و التفاصيل ، فهو يجسم صورة الحيوان و صورة الصحراء من حوله برمالتها و مفازاتها و أعشابها و نباتاتها و غُدْرانها ، و هو إلى ذلك يبت في الحيوان مشاعر الإنسان و ما يعتريه من وساوس و هواجس . و قد صور في الثور حين هاجمته الكلاب شعوره بعزته و كأنه يمثل فيه البدوى و إحساسه بكرامته ، كما صور في الظليم و صاحبه عاطفة الأبوة و الأمومة الرحيمة . و لعل هذه أهم خاصة تميز وصف الحيوان الوحشي عند ذى الرمة إذ يحمله

١) الية التي لا تنى ترسل الماء .

(١) الكلى: الرقع في عروة المزادة. مفرية :

مقطوعة ، يشبه عينه التي يسيل دمعها برقع المزادة

عواطف الإنسان ومشاعره ، ومن أروع ما يصور ذلك عنده قوله في ظبية وابنها أو خيشفها :

إذا استودعته صمّصفاً أو صرّيمَةً      تنحّت ونصّت جيدها بالمناظر<sup>(١)</sup>  
 حذاراً على وُسنانٍ يضرعه الكرى      بكلّ مقبلٍ عن ضعافٍ قواثر<sup>(٢)</sup>  
 وتهجره إلا اختلاصاً نهارها      وكم من محبّ رهبة العين هاجر  
 حذار المنايا رهبةً أن يفتنّها      به وهي إلا ذاك أضعف ناصر<sup>(٣)</sup>

وواضح أنه صور محبة الظبية لابنها وكيف تخشى عليه السباع ، فهي تبعد عنه حتى لا تدلّها عليه ، وعينها مشدودة إليه ، وقد امتلأ قلبها بالحنان والحب والشفقة . وعلى هذا النحو كان يبت في الحيوان مشاعر الإنسان وأحاسيسه .

وبجانب هذه الخاصة في وصف الطبيعة الحية نجد خاصة أخرى في وصف الطبيعة الصامتة : إذ ملأها بالحياة والحركة ، ولكن كيف يأتي بذلك في خمود الصحراء وهودها ؟ لقد استعان في النهار بالسراب ، فإذا ذرّى الجبال تتحرك كأنها خيل ظالعة أو إبل تُهدى للنحر عند البيت الحرام ، أولعلها من تجرى في الفرات ، أما إذا جنّه الليل فحسبه النجوم التي يرى فيها صورة بقر الوحش والظباء . وجعله هذا التمثل لما يجري في الأرض والماء والسما يقع على صور فريدة من مثل قوله في وصف ظباء تبدو له من آفاق بعيدة :

كأنّ بلادهن سماء ليلٍ      تُكشّفُ عن كواكبها الغيومُ  
 وقوله في ظباء أخرى :

كأنّ أذمانها والشمسُ جانحةٌ      ودعُّ بأرجانها فضٌّ ومنظوم<sup>(٤)</sup>  
 وقوله في وصف الإبل ورحلتها في الصحراء :

كأنّ مطاينا بكلّ مفازةٍ      قراقيرُ في صحراء دجلة تسيح<sup>(٥)</sup>

(١) الصمّصف : الأرض المستوية . صرّيمة : (٢) يفتنّها . يسبقها .

رملة . نصت : نصبت مستقيمة . (٤) الأذمان : الظباء ، نفس : متفرق .

(٢) الكرى : النوم . المقبل : وقت القيلولة . (٥) القراقير : السفن .

وفي الحق أن مخيلته كانت حاملة، إذ ما تزال تبدو له الطبيعة في رؤى غريبة، وهي رؤى ملأت جوانب ديوانه بتجسيمات وتشخيصات بديعة من مثل قوله:

وريحُ الخُزاي رشها الطلُّ بعدما دنا الليلُ حتى مسها بالقوادم<sup>(١)</sup>  
وقوله:

ألا طرقتُ مَيَّ هَيُوماً بذكرها وأيدي الثريا جُحَّح في المغارب<sup>(٢)</sup>  
ومن صوره الطريفة صورته للحرباء ووصفه لما اشتهر به من استقبال الشمس لاجئاً بظهره إلى بعض العيدان ماداً يديه كأنه مصلوب، يقول:

إذا جعل الحرباء يَغْبِرُ لونه ويخضرُ من لَفْح الهجيرِ غَبَاغِبُهُ<sup>(٣)</sup>  
ويشبحُ بالكفَّين شَبِحا كأنه أخو فَجْرَةٍ على به الجِدْع صالبه<sup>(٤)</sup>

وعنى طويلا بوصف همس الفلوات وما يُسْمَع في حنادسها من أصوات مدوية كانوا ينسبونها إلى الجن، وزراه يشبهها بترابن الروم وتضرب الطبل وصياح الضرائر وأصوات السم<sup>(٥)</sup>. ومن أهم ما يميزه عنصر المفاجأة في صوره، وهو عنصر جعله يقرن الأشياء المتباعدة بعضها إلى بعض، فنصبح وكأننا حقا في عالم من عوالم الرؤى والأحلام.

## ٦

## الرُّجَّاز

الرُّجَّازُ من البحور القديمة في الشعر العربي، فقد كان يُسْتَعْتَدَم بكثرة في العصر الجاهلي، وهي كرة توكد أنه كان الوزن الشعبي العام الذي يدور على

- (١) القوادم: الريش الطويل في جناح الطائر.  
(٢) الهيوم: ذاهب العقل، وأراد بأيدي الثريا أوائلها.  
(٣) الغباغب: الجلد أسفل الحنك،  
(٤) يشيح: يمد يديه.  
(٥) الحيوان ٦/١٧٥ وما بعدها، ٢٤٧، ٣٦٣.

كل لسان ، ومن ثمّ قلماً وجدنا شعراءهم المبرزين ينظمون فيه وكأنما تركوه للجمهور يتعهده ويرعاه .

وليس ذلك كل ما نلاحظ في شعبيته الجاهلية ، فقد دخلت فيه صور كثيرة من الزخاف ، لا تلقانا في أي وزن آخر ، فكثُر فيه المشطور والمنهوك ، وأيضاً فإنه لم يتطَّلْ إذ كان لا يتجاوز البيتين والثلاثة إلا نادراً ، فهو مقطوعات قصار ، ينظمها كثيرون معروفون ومجهولون ، حين يتحدثون بغير حين يحاولون في ميادين الحروب ، وحين يتناولون أي عمل كحفر بئر أو متّح منها .

وعلى هذا النحو كان أبياتاً قليلة تُنظّم بديهة وارتجالاً مقترنة بأعمالهم وحركاتهم السريعة والبطيئة ، ومن ثمّ قيل إنهم حاكوا به وقع أقدام إبلهم في سيرها وسُراها ، وهيئته ذلك لأن يكون من أكثر الأوزان وأوفرها لحناً ونغماً لاقرانه بالحركة الدائبة .

وأول من أطاله وجعله كالقصيد شاعر مخضرم استشهد بموقعة نهاوند سنة ٢١ للهجرة هو الأغلب<sup>(١)</sup> العجلى . ولا نتقدم في عصر بني أمية ، حتى يتكاثر من يحاكونه . وحتى يتقصر بعض الشعراء النابهين حياتهم على تجويده وتحبيره ، وهم في ذلك فريقان : فريق يجمع بينه وبين القصيد ، وفريق لا يجاوزه ، ولسنا نقصد بالفريق الأول من نظموا بعض أراجيز قليلة مثل جرير وذى الرمة ، إنما نقصد من أكثر وأنها . ونظموا بين الحين والحين بعض القصيد .

وقد أخذت الأرجوزة — حين طالت — تتناول كل أغراض القصيدة وتجرى على نمطها من الحديث عن الأطلال ووصف الرحلة في الصحراء والمديح والهجاء والفخر ، فهي لا تختلف غالباً عنها في النظام وسرد الموضوعات المتنوعة . ومضت تزخّمها حتى غلبتها في باب الصيد بالجوارح ، إذ نجد غير شاعر ينظم في هذا الباب أراجيز كثيرة ، منهم الشمرّدل بن شريك التميمي الذي عرضنا له بين شعراء اللهو والجون وفيه يقول صاحب الأغاني : « كان الشمرّدل صاحب قنص وصيد بالجوارح وله في الصقّر والكلب أراجيز كثيرة<sup>(٢)</sup> » ويسوق له أرجوزة يسهلها على هذا النمط :

ص ٥٧١ وما بعدها والموشح ص ٢١٣ .

(٢) أغاني (دار الكتب) ١٣/٣٦١ .

(١) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٢٠/٥٩٥

والأغاني ١٦٤/١٨ والخزانة ١/٣٣٢ وأسد

الغابة ١٠٥/١ والإصابة ١/٥٦ وابن سلام

قد أغتدى والصبحُ في حِجابِهِ      والليلُ لم يَأُو إلى مآبِهِ  
 وقد بدا أبلقُ من مُنْجابه      بتوجيُّ صاد في شبابه<sup>(١)</sup>  
 مُعاودٍ قد ذلُّ في إصعابه      قد خرَّق الضَّفارَ من جذابه<sup>(٢)</sup>  
 وعرفَ الصوتَ الذي يُدعى بِهِ      ولعةَ المُلمعِ في أشوابه<sup>(٣)</sup>

ولقانا بأخرة من العصر أبو نُخَيْلَةَ<sup>(٤)</sup>، وهو مثل الشمر دل كان يجمع بين الرجز والقصيد، ويقول ابن المعتز: «له في الطَّرْد أراجيز كثيرة مشهورة... وأعاجيبه في القنص وغيره كثيرة» وقد ساق له أطرافاً من تلك الأراجيز، ولعل في هذا ما يصحح الفكرة التي كانت تزعم أن أبا نواس أول من فتح هذا الباب. وربما كان أهم من جمع بين الرجز والقصيد في هذا العصر أبو النجم العجلي، وسنعرض له عما قليل.

ولقانا كثيرين لا يتجاوزون الرجز إلى القصيد، منهم دُكَيْنُ<sup>(٥)</sup> بن رجاء الفُقَيْمِيُّ ودكين<sup>(٦)</sup> بن سعيد الدارِي، وقد خلط بينهما ابن قتيبة كما لاحظ باقوت في معجمه، ومنهم الزُّفَيانُ<sup>(٧)</sup> السعدِي التيمي، وأبرزهم جميعاً العسَّاجُ وابنه رُوْبَةُ اللذان انتهت إليهما صناعة الرجز، وتقول صناعة، لأن الرجز تحول عندهما إلى صناعة لغوية، فلم يعد يُقصد به إلى التعبير عن الأغراض الوجدانية وحدها، بل أصبح يُقصد به أيضاً إلى التعبير عن غرائب اللغة، وشركهما في ذلك من بعض الوجوه أبو النجم، ولكنه لم يُبعد في الإغراب إبعادهما.

(٥) انظره في معجم الأدباء (طبع مصر) ١١٣/١١ والشعر والشعراء ٥٩٢/٢ وتهذيب ابن عساكر ٢٤٧/٥.

(٦) راجع معجم الأدباء ١١٧/١١ وابن عساكر ٢٤٨/٥ والشعر والشعراء ٥٩٢/٢ وانظر الهامش.

(٧) راجع معجم المرزبان ص ١٤٩ وقد نشر ألوارد ديوانه في مجموع أشعار العرب، الجزء الثاني.

(١) أبلق: فيه سواد وبياض. منجابه: مكان انكشافه. التوجي: الصقر ينسب إلى توج من قرى فارس.

(٢) خرَّق: شق. الضفار: الحبل يشد به.

(٣) الملمع: المشير بثوبه.

(٤) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٥٨٢/٢ والأغانى (ساسة) ١٣٩/١٨ والخزائفة ٧٨/١ وطبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٦٢ وما بعدها والموضح ص ٢١٩.

ونحن نجد هذه الرغبة في العناية بالغريب عند كثير من الشعراء ، مثل الطَّرْمَاحِ والكُمَيْتِ ، وقد عرضنا لهما في غير هذا الموضوع . واشتهر شَيْبِلُ بْنُ عَزْرَةَ الضَّبْيَعِيُّ بأشعار له بناها على اللفظ الغريب <sup>(١)</sup> . وهو اتجاه تعليمي نظن ظناً أن الذي دعا إليه عناية الأجانب بتعلم العربية ونهوض طائفة من العلماء بجمع اللغة وشواردها ، وقد انبرى العَجَّاجُ وابنه رُوْبِيَّةُ يجمعان لهم في شعرهما هذه الشوارد حتى تحوَّل ديوانهما إلى معجبين للغرائب اللغوية ، وهما يحقُّ يُعَدُّ أن أهم من هياً لتحول الرجز من شعبيته القديمة إلى بيئة المثقفين ، وسرعان ما استغله العباسيون في شعرهم التعليمي الذي صنفوا فيه أهل المقالات وتحدثوا عن عجائب الخلق وقصّوا وساقوا الحكم والأمثال <sup>(٢)</sup> .

### أبو النجم <sup>(٣)</sup> العِجْلِيُّ

من أهل الكوفة ، وكانت فيه فكاهة ، فقرب من نفوس الولاة والأمراء والخلفاء ، وله فيهم أمداح كثيرة ، إذ نراه يمدح الحجاج وغيره من ولاة العراق كما يمدح سليمان بن عبد الملك وهشاماً ، وقد أقطعه الأخير بالكوفة أرضاً تسمى الفِرْكُ ، كان ينزل بها . وفي أخباره أنه قدم على زياد بن أبيه فرهبه رهبة شديدة ، وخرج من عنده ، وهو يقول <sup>(٤)</sup> :

أقبلتُ من عند زيادٍ كالخَرْفِ      تخطُّ رجلاي بخطِّ مختلفٍ  
تكتبان في الطريق لأم ألف

وفي ذلك ما يدل على أنه كان كاتباً . ويُجمَعُ الرواة على أنه كان سريع البلديّة في صنع الشعر ونظمه ، ومن ثمَّ كان يغلب الشعراء والرجّاز حين

والمرشح ص ٢١٢ والشعر والشعراء ٥٨٤/٢

وأغاني دار الكتب ١٥٠/١٠ والخزانة

٤٨/١ ، ٤٠١ والمبرد ص ٤٨٥ وما بعدها

ومعجم الشعراء ص ١٨٠ .

(٤) الخصائص لابن جني (طبع دار الكتب)

٢٩٧/٣ .

(١) البيان والتبيين ٣٤٣/١ وانظر كتاب

المكائنة عند المذاكرة للطائفي (لشر

جاير) ص ٤٠ .

(٢) انظر كتابنا «الفن ومذاهبه في الشعر

العربي (طبع دار المعارف) ص ١٣٩ وما بعدها .

(٣) راجع في أبي النجم ابن سلام ص ٥٧٦

يَسْتَبْقُونَ فِي مَوْضِعٍ يَطْرَحُهُ خَلِيفَةُ أَوْ وَالٍ ، وَيُظْفَرُ بِالْحَائِزَةِ مِنْ دُونِهِمْ ، وَيَقُولُ ابْنُ سَلَامٍ : إِنَّهُ أُبْلَغُ فِي النَّعْتِ مِنَ الْعَجَاجِ . وَأُمُّ أَرَاجِيْزِهِ لَامِيْتُهُ الَّتِي يَسْتَهْلِهَا بِقَوْلِهِ (١) :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَهَّابِ الْمُجْزِلِ أَعْطَى فَلَمْ يَبْخُلْ وَلَمْ يُبْخَلِ

وَالْأَرْجُوزَةُ بَعْدَ ذَلِكَ تَفِيضُ بِالْغَرِيبِ فِي وَصْفِ الْإِبِلِ وَمَرَاعِيهَا ، وَكَانَ رُوْبَةٌ يَسْمِيهَا أُمَّ الرَّجْزِ اسْتِحْسَانًا لَهَا وَإِعْجَابًا بِهَا . وَيُرْوَى أَنَّ الْعَجَاجَ غَدَا عَلَى النَّاسِ بِالْمِرْبَدِ يَنْشُدُهُمْ أَرْجُوزَتَهُ الْمَشْهُورَةَ « قَدْ جَبَّرَ الدِّينَ الْإِلَهَ فُجَبَّرَ (٢) » وَقَدْ ضَمَّنَهَا هِجَاءً لِرَبِيعَةَ ، فَاسْتَعَدْتُ عَلَيْهِ رَاجِزَهَا أَبَا النِّجْمِ ، فَبَادِرُهُ يَنْشُدُ أَرْجُوزَتَهُ « تَذَكَّرَ الْقَلْبُ وَجَهْلًا مَا ذَكَرَ » حَتَّى إِذَا بَلَغَ إِلَى قَوْلِهِ : « شَيْطَانُهُ أَنْتَى وَشَيْطَانِي ذَكَرَ » تَعَلَّقَتْ النَّاسُ هَذَا الشَّطْرَ وَهَرَبَ الْعَجَاجُ عَنْهُ . وَمِنْ طَرِيفٍ مَا يُرْوَى مِنْ أَرَاجِيْزِهِ أَرْجُوزَتَهُ فِي وَصْفِ فَهْرٍ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ بَشْرِ بْنِ مِرْوَانَ ، وَهُوَ يَسْتَهْلِهَا بِقَوْلِهِ :

إِنَّا نَزَلْنَا خَيْرَ مَنَزِلَاتٍ      بَيْنَ الْحُمَيْرَاتِ الْمُبَارَكَاتِ  
فِي لَحْمٍ وَحَشٍّ وَجُبَارِيَاتٍ      وَإِن أَرَدْنَا الصَّيْدَ ذَا اللَّذَاتِ (٣)  
جَاءَ مُطِيعًا لِمَطَاوِعَاتِ      عَلَّمَنَ أَوْ قَدْ كُنَّ عَالِمَاتِ  
فَهِيَ ضَوَارٍ مِنْ مَضْرِيَّاتِ      تُرِيكَ آمَاقًا مَخْطَطَاتِ  
سُودًا عَلَى الْأَشْدَاقِ سَائِلَاتِ      تَلْوَى بِأَذْنَابِ مَوْقِفَاتِ

وَكَثِيرٍ مِنْ رَجْزِهِ عَلَى هَذَا النِّحْوِ لَا يُسْعَدُ فِيهِ وَلَا يَغْرِبُ ، وَإِن كَانَ مِنْ الْحَقِّ أَنَّهُ « كَانَ يَتَوَسَّعُ فِي الْكَلَامِ وَيَحْمَلُ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ وَيَشْتَقُّ بَعْضَهُ مِنْ بَعْضٍ (٤) » ، وَلَكِنَّهُ يَظَلُّ قَرِيبًا مِنَّا فِي جَمْهُورِ رَجْزِهِ ، وَخَاصَّةً حِينَ يَعْمَدُ إِلَى التَّنْدُرِ وَالِدَعَابَةِ ، عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِهِ يَوْصِي ابْنَتَهُ « بَرَّةَ » عِنْدَ زَوَاجِهَا :

(١) نُشِرَ هَذِهِ اللَّامِيَّةُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمِصْنِيُّ فِي « الطَّرَائِفِ الْأَدَبِيَّةِ » طَبْعَ لَجْنَةِ التَّأْلِيفِ وَالتَّرْجُمَةِ وَالنُّشْرِ ص ٥٥ .  
(٢) جَبَرُ التَّأْفِيقِ بِمَعْنَى الْفَجْرِ .  
(٣) جُبَارِيَّاتٍ : جَمْعُ جُبَارِيٍّ وَهُوَ طَائِرٌ .  
(٤) الْخَصَائِصُ ١/٢٣٠ .

أوصيتُ من بَرَّةٍ قلباً حُرّاً      بالكلب خيراً والحماة شراً  
لا تسأى ضَرْباً لها وجراً      حتى ترى حُلُوَ الحياة مُراً  
وإن كستكِ ذهباً وُدّاً      والحيّ عُميهم بشرٌ طُراً

وكان يمثل هذه الدعابة يخف على قلوب الولاة والخلفاء ، فيفسحون له في مجالسهم ويجزلون له العطاء .

### العَجَّاج<sup>(١)</sup>

هو عبد الله بن رُوْبَة التميمي ، نشأ في البادية ونزل البصرة ، وكان دائم الرحلة إلى منازل قومه في الصحراء ، وقد سخر أراجيزه منذ يزيد بن معاوية في مديح الخلفاء ، وخاصة سليمان . ونراه ينظم بلسان قومه في خصومتهم للأزد عقب وفاة يزيد بن معاوية ، ولما ولي مصعب العراق لأخيه عبد الله بن الزبير لزمه ومدحه وهجا المختار الثقفي ، حتى إذا قتله عبد الملك بن مروان رأيناه يسارع إلى صفوف المروانيين ، فيمدح بشر بن مروان والى العراق وأخاه عبد العزيز والى مصر ، كما يمدح عمر بن عبيد الله بن معمر مشيداً بانتصاره على أبي قُدَيْك زعيم النّجّادات من الخوارج ، ويمدح أيضاً الحجاج ويهجو خصومه من مثل ابن الأشعث . وكانت فيه عصبية لقومه جعلته يضطرب فيما يضطربون فيه من خصومات قبلية ، ومرّ بنا وقوفه بالمربد يهجو ربيعة ، وكيف اقتص منه أبو النجم . واشتهر بأنه لا يحسن الهجاء ، وسئل في ذلك فقال : هل في الأرض صانع إلا وهو على الإفساد أقدر .

وأراجيزه مليئة بأوابد اللغة وشواردها التي ينثرها ، بل يضمها بعضها إلى بعض ، في وصف الطبيعة الصحراوية بمناهلها وغدرانها ورمالها وكشبانها ونباتاتها وحيوانها الوحشي والأليف ، وكل ما يجري في أرضها من رياح وسموم وطيور وفي

٣٩٤/٧ وفهارس البيان والتبيين والخصائص لابن جنى والمزهر للسيوطي (طبعة الحلبي) وقد نشر الوارد ديوانه في مجموع أشعار العرب ، الجزء الثاني .

(١) انظر في العجاج الشعر والشعراء ٥٧٢/٢ والموضح للمرزباني ص ٢١٥ وما بعدها وشرح شواهد المغني ١٨ وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر

سمائها من كواكب ونجوم . وهو يُعمدُ بحق أول من فسح طاقة الرجز وجعله يخوض في كل ما تخوض فيه القصيدة العربية الطويلة . وهو أيضاً أول من دفعه بقوة من الميادين الشعبية إلى ميدان الغرابة اللفظية ، ولم يكتف بذلك ، فقد أخذ يقيس في اللغة ويكثر من القياس ، ويتصرف حسب ذوقه وإرادته الفنية . ولم يقف في ذلك عند ألفاظ اللغة العربية وحدها ، إذ كان يعمد إلى بعض الألفاظ الفارسية فيعربها ، وقد بصرف منها أفعالا ، على نحو ما صنع في أرجوزته الجيمية ، إذ يلقانا فيها هذا الشطر : « كما رأيت في الملاء البردجما ، يريد الرقيق ، وقال : « كالحبشى التف أو تسبجا » يريد لبس قميصاً ، وهو بالفارسية شبي ، فعربه بسبيجة ، ثم صرف منه فعلا في بعض أبياته (١) .

وزناه يلترم في أرجوزه الموقوفة أو المختومة بالسكون أن يكون موضع الروي في الإعراب واحداً ، بحيث لو أُطلقت قوافيها تحركت جميعاً بحركة واحدة ، على نحو ما يلاحظ ذلك في أرجوزته الطويلة « قد جبر الدين الإله فجبر » ، وهي في نحو مائتي بيت ، ولو أُطلقت قوافيها كانت كلها منصوبة (٢) . ومن طريف ما كان يأخذ به نفسه أحياناً أن نراه يعدل عن افتتاح بعض أرجوزه بذكر الأطلال ووصف الصحراء إلى الحمد والثناء على الله ، وقد يستمر في ذلك استرسالاً ، فتصبح الأرجوزة موعظة تامة ، على شاكلة أرجوزته :

الحمدُ لله الذي استقلَّتْ بإذنه السماءُ واطمأنَّتْ

وقد تحدت فيها عن خلق السموات والأرض ، والبعث والنشور ، وما أفاء الله عليه من نعمه ، وقلقه على مصيره ورجائه في ثوابه . وهو في ذلك يتأثر مباشرة بمواعظ الوعاظ من حوله أمثال الحسن البصرى وغيره وقد توفي سنة ٩٧ للهجرة . وتُنسَبُ له أرجوزة في مديح يزيد بن عبد الملك ، وإن صححت يكون قد لحق أوائل القرن الثاني حين كان يزيد خليفة ، وهو على كل حال مات عن سن

(١) الرسالة بين المتنبئ وخصومه (طبعة الحلبي) (٢) انظر الأغاني (طبع ساسي) ٦٠/١٨

عالية . ونراه في أراجيزه يكثر من بكاء الشباب وتصوير شيخوخته وضعفه ،  
من مثل قوله :

إِذَا تَرِينِي أَصِلُ الْقُعَادَا وَأَتَقِي - أَنْ أَنْهَضَ - الْإِرْعَادَا<sup>(١)</sup>  
مَنْ أَنْ تَبَدَّلْتُ بِأَدِي آدَا لَمْ يَكْ يَنْآدَ فَاْمَسَى اِنَاَدَا<sup>(٢)</sup>  
وَقَصَبَا حُتَّى حَتَّى كَادَا يَعُودُ بَعْدَ أَعْظَمَ أَعْوَادَا<sup>(٣)</sup>

والجناس واضح في البيت الثاني ، وهو يشيع في أراجيزه ، لكثرة ما كان  
يُعنى به من الإتيان بالمصادر وأفعالها ومشتقاتها ، على نحو ما صنع هنا في  
الآد وأنآد ، وقد جانس في البيت الثالث بين يعود وأعواد . وكثيراً ما نراه يشق  
من الأسماء الجامدة أفعالا ومشتقات ، أو يأتي ببعض المزيادات من الحروف ،  
وكل ذلك بقصد الإغراب ، كأن الإغراب أصبح عنده يُقصد لذاته ، فإن  
فاته في اللفظ نفسه أتى به فيما يضعه من صيغ جديدة .

### رُؤْيَةٌ<sup>(٤)</sup>

سمّاه أبوه العجاج باسم جدّه ، وقد وُلد له حوالي عام ٦٥ للهجرة ،  
ويظهر أنه عُنى به منذ صغره ، وأنه ما زال به حتى استيقظت شاعريته مبكرة ،  
إذ نراه يفد معه على الوليد بن عبد الملك ( ٨٦ - ٩٦ هـ ) ، ونراه في رفقة  
الشعراء الذين حجوا مع سليمان بن عبد الملك سنة سبع وتسعين<sup>(٥)</sup> . ويظهر  
أنه كان يولع بالرحلة منذ شبابه إلى الشرق ، فينزل تارة السند وتارة خراسان .

١٢٤/١٨ وما بعدها و ٥٧/٢١ والخزانة  
٤٣/١ ومعجم الأدياء ١١/١٤٩ وابن خلكان  
وتهذيب التهذيب ٢/٣٩٠ ولسان الميزان ٢/٤٦٤  
والموشح ص ٢١٩ وابن عساكر ٥/٣٢١ وكتابتنا  
« التطور والتجديد في الشعر الأموي » ص ٣٤٠ .  
وقد نشر ديوانه آل لوارد وخصه بالجزء الثالث  
من مجموع أشعار العرب .  
( ٥ ) طبري ٥/٣٠٥ .

( ١ ) القعاد : جمع قاعد ، يريد أنه يكون  
منهم ويفعل فعلهم .

( ٢ ) الآد : القوة كالأيدي . انآد : اعوجج  
وانحنى .

( ٣ ) القصب : كل عظم ذي مخ . حتى :  
دق ، يريد أن عظمه وهن .

( ٤ ) انظر في ترجمة رؤْيَة الشعر والشعراء  
٥٧٥/٢ وابن سلام ص ٥٧٩ والأعنان ( ساسي )

ومنذ أوائل القرن الثاني يلزم ولاية العراق بمدحهم ، بمدح أولا مسلمة بن عبد الملك ويشيد بانتصاراته على الأزدي وصاحبهم يزيد بن المهلب ، ويحترق في هذه الإشادة عصبية عنيفة لقومه تميم ، وقد مضى بمدح هريم بن أبي طحمة الحياشعي أحد قوادهم الذين أبلوا في القضاء على يزيد وثورته . وتلقانا في ديوانه أراجيز كثيرة في مديح خالد القسري وولائه وفي مديح كثير من رجالات العراق أمويين وغير أمويين ، نذكر منهم المهاجر بن عبد الله والي الحماة ، وبلال بن أبي بردة الأشعري نائب خاند على البصرة ، وأبان بن الوليد البجلي نائبه في شؤون الحراج ثم والي فارس ، والحكم بن عبد الملك بن بشر بن مروان ، وحرب بن الحكم بن المنذر بن الجارود ، وعمرو بن عتبة بن سعيد بن العاص . ويقدم على الوليد بن يزيد بن عبد الملك فيمدحه ، ومدح مروان ابن محمد آخر خلفائهم ويلج في هجاء خصومه المارقين . وينزل خراسان . فيمدح نصر بن سيار ويحذره من أبي مسلم الخراساني في غير أرجوزة .

وجعله هذا الموقف من مناصرة الأمويين يستشعر غير قليل من الخوف والوجل حين تحولت مقاليد الأمور إلى العباسيين ، ويحاول أبو مسلم الخراساني أن يذهب عنه روعه . وكذلك يصنع أبو العباس السفاح . وله في مديحه أرجوزة طويلة إذ امتدت إلى أربعمئة بيت ، ومدح من بعده أبا جعفر المنصور . وهو في أثناء ذلك كله مقيم بالبصرة ، حتى إذا ثار بها إبراهيم بن عبد الله بن الحسن رأيناه يخاف على نفسه ، ويخرج إلى البادية ، ليتجنب الثورة ، وسرعان ما يلبي نداء ربه سنة ١٤٥ للهجرة .

ومر بنا أنه كان جبرياً ، يؤمن بأن عمل الإنسان قدره مقدور عليه لا مفر منه ، مما جعله يناقش ذا الرمة في مذهبه القسري على نحو ما أسلفنا . والروح الإسلامية قوية في شعره ، ويقول بعض من ترجموا له إنه كان يتأله . وعنده انتهى فن الرجز إلى كل ما كان ينتظره من وعوثة وصعوبة لغوية . إذ تحول به يرضى اللغويين من حوله ويقدم لهم كل ما كانوا يطلبونه من الشواذ اللغوية في الألفاظ وأبنيها وهيئاتها وما قد يحدث في بعض الحروف كالهزمة من إعلال ، وكأنما تحول معيماً لا ينفذ للأوابد والشوارد ، ومن ثم غدت الأرجوزة

عنده وكأنها متن لغوي معقد ، أو قمل مستعلق ، تستغلق ألفاظه ، إذ يختارها من وحشي الكلام ، بحيث لا يفهمها إلا خاصة الخاصة من اللغويين الذين كانوا يأخذون عنه أمثال يونس وأبي عبيدة وخلف الأحمر وأبي عمرو بن العلاء . وهو لا يكتفي باستغلاق اللفظ من حيث وحشيته وغرابته ، فقد كان يضيف إلى ذلك زوائد تزيد استغلاقاً ، زوائد من تغيير في الحركات أو إعلال في الحروف أو إتيان بصيغ جديدة في التصريف بواسطة المصادر والجموع والأفعال ، كأن يقول في مطلع قافيته المشهورة :

وقاتمِ الأعماقِ خاوى المُخترَقِ مُشْتَبِهِ الأعلامِ لَدَاعِ الخفَقِ<sup>(١)</sup>

فقد حرك فاء الخفق الساكنة وجعلها مفتوحة للإبتاع . ومن ذلك إضافة النون الساكنة إلى بعض قوافيه مثل « يا أبتا علك أو عساكن » والإتيان بصيغة فيعل بفتح العين في قوله : « ما بال عيني كالشعيب العين » والقياس العين بكسر الياء مع التشديد<sup>(٢)</sup> . وقرأ قوله في وصف الليل :

وجلُّ ليلٍ يُحسبُ السُدوسا يَسْتَسْمَعُ السَّارى به الجُروسا<sup>(٣)</sup>  
هَمَاهِمًا يَسْمَهونَ أَوْرَسيسا علوتُ حين يَخضع الرَعوسا<sup>(٤)</sup>  
قَرَعُ يدِ اللعَّابة الطَّسيسا<sup>(٥)</sup>

فإنك تراه يجمع جرساً على جروس ، فيغرب شيئاً ما ، ويعمد عمداً إلى ألفاظ غريبة يحشو بها وصفه من نحو السدوس والريسيس والرعوس ، وجاء بالطلست لا بصيغته المألوفة ، وإنما بصيغة الطسيس . وعنى بأن يلاثم بين الرويِّ

(١) يتحدث رؤية عن فلاة . قاتم : أسود ،

أعماق المغازة : أطرافها البعيدة . مخترق

(٢) جل الليل : معظمه . السدوس : الطيلسان الأخضر . جروس : جمع جرس وهو الصوت

الرياح : مهجها . خوازه : خلوه . الأعلام : الجبال يتدى بها ، يقول إنها متشابهة . لماع الخفق : السراب ، وخفقه : اضطرابه وتحركه .

(٣) همام : جمع مهممة وهي الصوت الخن ، الرئيس : الحديث غير البين . الرعوس : الذي يهز رأسه في نومه .

(٤) راجع الخصائص ٢/٢١٤ ، وسيبويه ٢/٣٧٢ . الشعيب : المرادة والسقاء الباني .

(٥) الطسيس : الطلست ، يريد أن النوم يميل رأسه ويلعب به كما يلعب اللاعب بالطلست .

العين : سائل الماء .

والكلمات الداخلية في البيت ، إذ اختارها من ذوات السين . وهو مثل أبيه كان يُعنى بالجناس كثيراً في نظمه ، وخاصة جناس الاشتقاق .

واقراً في أراجيزه فإنك لا تستطيع أن تخرج من بيت إلى بيت إلا بعد أن تَعكسه على فهمك مراراً ، وتعود إلى معاجم اللغة تَكَرراً ، وتنتظر في سبويه وغيره ممن عنوا بتوجيه الصيغ في شعره . ومن المؤكد أن أباه هو الذي فتح له هذا الباب ، ولكنه هو الذي انتهى به إلى هذه الصورة المتعمقة في الإغراب ، إذ كان يُكثر من القياس في اللغة والتصرف فيها بالتفريع والتوليد ، محاولاً أن يأتي بكل شاذة . وبذلك تحولت أراجيزه إلى متون لغوية كاملة ، وأخذ يفزع إليه الشعراء الذين كانوا يُعنون بإدخال الغريب من مثل الطَّرِمَّاح والكُمَيْت ، يأخذون منه الشيء بعد الشيء ليدخلوه في أشعارهم<sup>(١)</sup> . وتحول إليه يونس وأضرابه من علماء النحو يسجلون رجزه وما يأتي به من مستغلات لغوية ، كان يحشدها في أراجيزه من أجلهم ، ونراه بصرح بذلك ، إذ يقول في أرجوزة له « يلتمس النحوي فيها قصدي » .

وعلى هذه الشاكلة اقترنت الأرجوزة عند رؤبة بغاية تعليمية واضحة ، وهي غاية لم تلبث أن تحولت بها كما قدمنا إلى الشعر التعليمي الذي أخذ ينظمه الشعراء في العصر العباسي ، وكانهم وجدوا في وفرة موسيقاها ما يتلافون به نقص المعاني الشعرية في هذا الضرب الخاف من ضروب الشعر . ومضى العباسيون يولِّدون من اتحاد مصاريعها صوراً جديدة من المزدوج والخمس . ونرى الأندلسيين حين يخترعون الموشحات ويزاوجون فيها بين الأوزان وبخالفون بين القوافي يعتمدون في هذا الصنيع على نظام الأرجوزة في التصريح ، فيجعلون الشطر وحدة في الموشحة ، على نحو ما صنع رؤبة ورُجَّاز هذا العصر في أراجيزهم . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن الأراجيز وخاصة عند رؤبة هي التي ألهمت ابن دريد حكاياته في تعليم اللغة كما ألهمت بعد ذلك بديع الزمان الهمداني والحريري صنع مقاماتهم المعروفة .